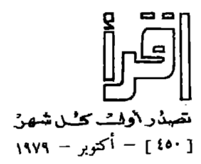


عَبد المنعمْ شميسْ

شخصيّات فى حياة شوقى



تصدر أول كل شهر
[٤٥٠] – أكتوبر – ١٩٧٩

رئيس التحرير أنيس منصور

عبد المنعم شميس

شخصيّات في حياة شوقي



دار المعارف

تصميم الغلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

شوقي شاعراً

(١٢٨٥ – ١٣٥١ هـ / ١٨٦٨ – ١٩٣٢ م)

لم يختلف الناس منذ نشوء الشعر العربي حتى اليوم ؛ كما اختلفوا حول المتنبي وشوقي ، وسيظل هذا الخلاف قائماً ، لأن هذين الشاعرين يمثلان العبقرية الحقيقية في شعر العرب ، ويعترف بذلك أحبابهما وحسادهما على السواء .

وقد اتهم نقاد كثيرون المتنبي بأنه سرق من شعر غيره ، ثم جاء من بعدهم نقاد اتهموا (شوقي) بأنه سرق من شعر المتنبي ، ولكن هؤلاء النقاد جميعاً لم ينظروا إلى معنى العبقرية في الشعر ، فكانوا يشرّحون الأبيات تشريحاً قاتلاً للوصول إلى معنى أو لفظ يجرحون به سمات العبقرية .

ومنذ قديم اخترع نقاد الأدب العربي باباً اسمه (السرقات الشعرية) ، ضموه إلى أبوابهم الثابتة في النقد التي اهتمت بأشعر بيت قالته العرب ، وأحسن بيت قالته العرب ، إلى غير ذلك من أشياء لا قيمة لها في موازين النقد بمفهومه الجمالي الفني .

وليس من هدفى أن أحدثك عن شىء من هذا . لأننى لست ناقداً . ولكننى أنظر إلى شوقى من جانب آخر . هو التعريف ببعض ملامحه عن طريق الشخصيات التى أثرت فى حياته الشعرية . وكان له ارتباط بها . وقد بحثت عن هذه الشخصيات . وانصرف اهتمامى إلى بعضها مما أثر عن قريب أو بعيد فى حياة أمير الشعراء .

ولكن (شوقى) كان يعرف شخصيات لاحصر لها . ومنهم مشهورون . ومنهم مغمورون . وكانت حياته العامة والخاصة تحفل بالناس من أهل السياسة والصحافة والشعراء والفنانين والأدباء وغيرهم . كما كانت له صداقات وعداوات . وقد روى عنه معاصروه الروايات . وكان مؤثراً فى هؤلاء الناس . ومتأثراً بهم .

وقد تسألنى : لماذا لم أجعل (محمود سامى البارودى) واحداً من المؤثرين فى شوقى ؟ وأقول لك : إننى لم أحس بأثر للبارودى فى شاعرية شوقى ، وليس هذا القول من النقد الأدبى ، ولكنه إحساس لاعلاقة له بالنقد ، وقد عرف شوقى الشاعر الفارس (محمود سامى البارودى) . وكان جاره فى حلوان ، كما أن الشيخ المرصفى كان أستاذاً لهما . ولكننى بعد أن طالعت شعر البارودى وشعر شوقى لم أشعر بوجود علاقة وجدانية بين الشاعرين ، ولم أجد بينهما صلة من ناحية التركيب الفنى للشعر مع أنهما أخذا من نبع واحد ، كما كانا كلاهما من رجال القصر ، فقد كان البارودى ياوراً لإسماعيل ، كما ولد شوقى بباب إسماعيل .

ويبدو لى أن صلة شوقى بالبارودى كانت صلة عابرة . أو علاقة احترام من شاعر شاب لفارس من فرسان الشعر العربى الحديث . كما أن البارودى كان مغضوباً عليه من القصر بعد عودته من المنفى ، على حين كان شوقى شاعر الأمير . ولم يكن فى الإمكان وجود انسجام عاطفى بينهما ؛ حتى لو كان بينهما احترام . وقد اضطر شوقى إلى إهانة (عرابى) بعد عودته من المنفى بقصيدة غريبة لاتتوافق هى ومزاج

شوقى وأخلاقه إرضاء لأميره . فكيف تنسجم عواطفه وكبير من رجال الثورة العرابية مثل البارودى ؟

ولذلك لم أجعل البارودى من الشخصيات التى بحثت عنها فى حياة أمير الشعراء .

ومن الواضح أننى أتحدث عن الشخصيات المعاصرة لشوقى . وهم الذين عرفهم وعرفوه ، ولاأتحدث عن الشعراء القدماء أوالأدباء القدامى الذين أثروا فى شوقى . وكان أولهم المتنبى . فقد صحب شوقى ديوان المتنبى معه حين سافر إلى فرنسا . ولم يكن معه ديوان شعر غيره . كما روى الأمير شكيب أرسلان .

هذا ماأردت أن أحدثك به فى البداية .

أما تاريخ نشأة شوقى فإنه يرويه لك بنفسه ، ويقول لك :

« سمعت أبى رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول : إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر (محمد على باشا) ، وكان جدى وأنا حاملُ اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وإنشاء ، فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العالية ، ويتقلب فى المناصب السامية إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية . فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى فى سكرة الشباب ، ثم عاش بعمله غير نادم ولامحروم ، وعشت فى ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ، ولاأرانى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل ألاَّ أقتات من فضلات الموتى ! »

ثم ذكر طرفاً من سيرة جده لوالدته[1] ، إلى أن قال عن نفسه :

---

(١) كانت جدته لوالدته يونانية من بلاد المورة . سباها إبراهيم باشا فى الحرب ، ثم أعتقها وزوجها (محمد بك حليم) أحد رجاله الأتراك . وهو جد شوقى لوالدته .

أنا إذن عربي . تركي . يوناني . جركسي . بجدتي لأبي : أصول أربعة في فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل إلى أن يقول :

« أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا أحبو اليوم إلى الثلاثين : حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ (على الليثي) قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد . فقص على حلما رآه في نومه . فقلت له وأنا أمازحه : « ليولدنّ لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً في الإسلام ! »

ثم اتفق أني عدت الشيخ في مرض الموت ، وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقي . فوالله ما قالها قبل في الإسلام أحد : قلت : وما تلك يامولاى ؟ قال : قصيدتك في وصف « البال » التي تقول في مطلعها :

حف كأسها الحبب فهي فضة ذهب

وهاهي ذي في يدي أقرؤها ! فاستعذت بالله وقلت : الحمد لله الذي جعل هذه هي « الخرق » ولم يضر بالإسلام فتيلاً .

أخذتني جدتي لأمي من المهد ، وكانت منعمة موسرة ، فكفلتني لوالدي وكانت تحنو على فوق حنوها ، وترى لي مخايل في البر مرجوة .

حدثتني أنها دخلت بي على الخديو إسماعيل وأنا في الثالثة من عمري ، وكان بصري لايترل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرةً من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميّ ، فوقعت على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدتي : إصنعي معه مثل هذا ، فإنه لايلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض ! قالت : هذا دواء لايخرج إلا من صيدليتك يا مولاى ! قال : جيئي إليّ به متى شئت ؛ إني آخر من ينثر الذهب في مصر ، ولايزال هذا الاختلال العصبي في الإبصار يعاودني وكان المرحوم الشيخ على الليثي كلما التقت عينه وعيني ينشد هذا

المصراع للمتنبي :

(محاجر مسك ركبت فوق زئبق)

ثم عرض لنشأته الدراسية فذكر أنه دخل مكتب الشيخ صالح فى الرابعة من عمره ، وأخيراً التحق بمدرسة الحقوق فوجد ممانعة من ناظرها بسبب صغر سنه ، ومكث بها سنتين ، ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين .

قال : « وبينما أنا أتردد على المغفور له (على باشا مبارك) فى شأن ورد عليه مرسوم من المعيّة بطلبى إليها . فكان سروره بذلك أضعاف سرورى بالنعمة المفاجئة . فذهبت إلى السراى وهنالك استؤذن لى على المرحوم الخديو توفيق باشا ؛ فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ، ولكن مدحته مراراً وأنا فى المدرسة خاطبنى بهذا اللفظ الشريف :

«قرأت يا شوقى فى الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية ، وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتى ، لكن ليس بها الآن محل خال ، فهل لك فى الانتظار ريثما يهيئ الله لك الخير ؟ » . فاستلمت أذيال العزيز وقبلتها ثم قلت : حسبى يا مولاى أنك قد ذكرتنى من تلقاء نفسك الشريفة ، وأى خير يهيئ الله لعبدك أفضل من هذا ؟ فأطرق هنيهة وقال : قد سمعت أن أباك عطل من الخدمة فأبلغه أننى ربما أدخلته فى عمل قبلك ، ثم تهلل وأذن لى فى الانصراف .

لبثت فى المعية بضعة أشهر أنتظر فرجاً يأتى به الله ، وكان المرحوم (على باشا مبارك) لم يقطع عنى الراتب إلى أن كان يوم كثر غيمه وتثاقل مطره ، فخرجت قبيل الأصيل فى حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى ، وبينما أنا عائد إلى منزلى أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز فى بهو السراى يشرف منه ، فنزلت عن الدابة أمشى كرامة للمليك المطلّ ، وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقينى خلف القصر ، ثم مشيت على الأقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضنى رسول من

الأمير يدعونى إليه . فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب . وكان معه ساعتئذ المرحوم (عبد الرحمن باشا رشدى) فتحلى الحلم بصورة الغضب وقال : أليس لى أن أطل من بيتى حتى نزلت عن حزنك وألجأتنى إلى الانثناء ؟ قلت : عفواً يامولاى ! هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم :

وإذا المطىّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

فتبسم ضاحكاً ثم قال : إنكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم . وهذا اليوم من أيامكم . فاسمع للباشا فإن عنده لك فألاً . فالتفت الباشا عندئذ إلىّ وقال : الآن أمرنى أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشاً فى الخاصة الخديوية . وأما أنت فتعين بعد شهر . ثم مد العزيز إلى يده فقبلتها واجماً ؛ قد غلب علىّ السرور حتى أنسانى الشعر وكان ذلك وقته » .

ثم عرض شوقى لأول عهده فى وظيفته بالمعية السنية ، وكيف أراد له الخديو توفيق أن يدرس فى أوربا الآداب الفرنسية . والحقوق وكان ينقد ستة عشر جنيهاً نصفها من الخاصة ونصفها من المعية ، وأعطاه يوم سفره مائة جنيه بعث بنصفها إلى مدير الإرسالية ليهيئ له جميع مايحتاج إليه ، ووصف ركوبه البحر لأول مرة إلى مارسيليا على أن يقضى عامين فى مدينة «مونبلييه» وعامين فى « باريس » .

ولما انقضت السنة الأولى التمس من الخديو توفيق أن يأذن له فى الحضور إلى مصر ، فأبى عليه أمنيته وأوصاه أن يبقى أربع سنوات كاملة فى أوربا ، وأرسل إليه خمسين جنيهاً لينفقها فى رحلة يختارها إلى أى بلد سوى مصر ، فتقبل دعوة رفاقه الفرنسيين إلى مدنهم المتفرقة فى الجنوب وقضى فيها شهرين ، ووصف ما رأى فى هذه الأقاليم الفرنسية من كرم ضيافة ، إلى أن يقول وصفاً للفلاح الفرنسى :

« وعرفت الفلاح الفرنسى فى داره ، وكنت ألقاه فى مزرعته وأماشيه فى الأسواق ، فيخيل إلى أنه قد خلف العرب على قرى الضيف وإكرام الجار ، وكان

أعجب مارأيت مدينة « كركسون » : وجدتها قسمين . وألفيت القوم عليها صنفين : فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان آباؤهم عليه فى القرون الوسطى ، بناؤهم ذلك البناء . ولباسهم ذلك اللباس . وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق » .

وبعد انتهائه من السنة الثانية سافر فى صحبة الطلاب المصريين ومدير الإرسالية إلى إنجلترا على نفقة الخديو توفيق ومكث فى إنجلترا شهراً . ولم يلبث هو وإخوانه أن سئموها . وفى السنة الثالثة أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت . وأشار عليه الأطباء أن يقضى أياما تحت سماء أفريقية . فوقع اختياره على الجزائر . وكان دليله إليها أحد القضاة الفرنسيين الموظفين بها ، إلى أن يقول :

« أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء فى صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه إلا جنوب فرنسا . ولم أتأثر فيها كتأثرى من رؤية المصريين فى القهاوى البلدية إذ أكثر أصحابها وغلمانها منهم . إلى أن قال : ولاعيب فى الجزائر سوى أنها قد مسخت مسخاً . فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية ! وإذا خاطبته بها لم يجبك إلابالفرنسية ! » .

وبعد أن أقام شوقى فى الجزائر أربعين يوماً عاد إلى باريس وحصل على الشهادة النهائية . ورأى الخديو عباس أن يبقى ستة أشهر أخرى ، وعاد إلى مصر بعد ذلك ، وفى سنة ١٨٩٤ م انتدب لينوب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف بسويسرا ، فأقام بها شهراً ثم رحل إلى بلجيكا وزار المعرض الذى أقيم فى مدينة « أنفرس » ثم أصيب برمد فى عينيه ، فسافر إلى الآستانة ومكث بها أربعين يوماً .

ويروى كيف سمى ديوانه « الشوقيات » : فيذكر صلته وهو يطلب العلم فى باريس بالأمير شكيب أرسلان وقد تمنى عليه أن يرى مجموعة شعره وأن يسميها

، شوقيات ، رى أن يقول :

كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات . فكان لى عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً لى من مشتت منظومى ومنثورى مانشر منها وما لم ينشر . وقد كتب بعضه بالحبر وبعضه الآخر بالرصاص ، وكلٌ بخط يد المرحوم وقد لفه فى ورقة كتب عليها هذه العبارة : « هذا ماتيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوربا . فكنت كأنى أراه وأنى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لايجد بعدى من يعتنى بشئونه . وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب » . فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق ، حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارنى صديقى (مصطفى بك رفعت) . فحدثته حديثى . فسألنى أن أعيره الأوراق أياماً ، ثم يعيدها إلىّ ففعلت . ثم لم يمض شهر حتى بعث بها إلىّ وإذا هى قد نسخت بقلم سليم يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى الطابع . فأخذتها وبودى لو وفيت صديقى المشار إليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول فى نفسى : لئن صدق أبى فى الأولى لقد ظلم فى الثانية فإن الخير لايزال فى الناس » .

وكان شوقى قد بلغ الثلاثين من عمره عندما كتب تاريخ نشأته .

ثم عاد شوقى من مؤتمر المستشرقين الذى ألقى فيه قصيدته الشهيرة التى سماها (كبار الحوادث فى وادى النيل) . ويقول فى مطلعها :

همّت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تُقل الرجاء

وهى رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء (محمد على) .

وعينه الخديو عباس حلمى شاعره الخاص ، ورئيساً للقسم الإفرنجى بقصر عابدين ، وكان له من النفوذ والدالة ما استرعى إليه أنظار ذوى الحاجات ، ولاسيما طلاب الرتب والأوسمة . فكان لايرد طلباً ، ولايخيب فى سؤال ، فأفاد بذلك ثروة

حسنة . وكان قد تزوج وهو فتى فى منتصف العقد الثالث . فحملت إليه زوجته ثروة ضخمة عن أبيها ، فأصبح من كبار الموسرين .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى خلعت بريطانيا الخديو عباس حلمى ، وعينت السلطان (حسين كامل) سلطاناً على مصر ، وأبعدت شاعر الأمير عن مصر ، فأقام بالأندلس ، واتخذ برشلونة له سكناً .

يقول ولده (حسين شوقى) الذى صحبه مع أخيه على ، فى منفاه إلى الأندلس ، وهو يصف هذه الفترة من حياة شوقى :

«عندما أعلنت الحرب الكبرى كنا مع والدى فى تركيا ، فبرحناها على الفور عائدين إلى مصر إذ إن الإشاعات وقتئذ فى الآستانة كانت تدل على أن تركيا سوف تدخل فى الملحمة . . ولكن الحال كان قد تبدل فى مصر ، وكذلك نظام الحكم ، فصار يخشى لقاء والدى أصدقاؤه الذين كانوا بالأمس – فى أيام بأسه – لايتركون له ساعة للراحة من كثرة طلباتهم وحاجاتهم حتى اضطر فى أواخر أيام حكم سمو الخديو السابق إلى أن يفتح لنفسه غير الباب العمومى باباً صغيراً متوارياً فى الحديقة ليفر منه ! وقد ذكر لنا أن صديقاً حميماً له شهده – بعد عودته من الآستانة – سائراً فى الطريق ، فانتقل هذا الصديق إلى الرصيف المقابل ، حتى لايتهم بمصافحته أحد رجال النظام القديم ، لذلك كم قابل والدى بارتياح حكم السلطة العسكرية فى ذلك الوقت حينما كلفته مغادرة مصر لينجو من الدسائس ، ولايتألم بمثل هذه المشاهد ، وهو الشاعر الشديد التأثر والإحساس» .

وعاد شوقى إلى مصر فى أواخر سنة ١٩١٩ ، وقد تغير سكان قصر عابدين ، فابتعد عنه ، وانصرف إلى العمل المنتج العظيم ، ولم تفتر همته على كبر السن ، وإيذان الشمس بالغروب .

وفى سنة ١٩٢٧ عُقد مهرجان لتكريمه فى دار الأوبرا ، فجاءت وفود الأدب

من جميع الأقطار العربية ، وبايعته بإمارة الشعر .

وعاش سنواته الأخيرة عيشة هادئة خصبة ، يتمتع بجاه عريض ، ومال وافر وشهرة طائرة ، حتى توفاه الله[1] فى اليوم الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

استقبل شوقى يوم الخميس ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ كما كان يستقبل أمثاله من الأيام ، وما درى أن شمس هذا النهار لن تطلع عليه مرة أخرى إلا وهو فى جوار ربه ، وقد رآه أصدقاؤه كما كانوا يرونه فى أيامه السالفة نشيطاً حلو البادرة وإن كانت السنون والأحداث قد أعيته بأعبائها فبدا شاحباً كثير التحوط والتخوف .

وقد تناول غذاءه ، واستراح متمددًا على كرسيه إلى وقت الأصيل ، فأقلته سيارته لتتنزه على ستة ويرفقته وكيل أعماله وكاتب شعره الذى يلازمه فى السنتين الأخيرتين فى غدواته وروحاته . وقد طاب له ارتياد الأماكن الخلوية . فمازالت السيارة تسير به إلى أن وصلت طريق السويس فى صحراء مصر الجديدة . فرأى أن يترجل مستنشقاً للهواء الطلق .

وبعد أن قضى أربه من النزهة عاد قاصداً منزل (إسماعيل شرين بك) كدأبه كل أمسية : إذ يسمر مع نخبة من كرام القوم فى مجلس أنيق ، وأكثر من كان يناقشه ويحاوره هناك . العالم المهذب (فؤاد سليم بك والسيد المفضال إسماعيل شرين بك) ، لكن مجلس السمر لم يكن منعقدا فى تلك الليلة ، فعاد « شوقى » راغبا فى تناول العشاء ، وهو منشرح الصدر ، منبسط النفس .

تعشى فى مطعم (سلستينو) على ماجرت عليه عادته أيضاً ، ثم رغب فى أن يتم بقية البرنامج الليلى الذى قلما يحيد عنه ليلة واحدة .

وبقية البرنامج الذى أخذ نفسه به زيارة دار « الجهاد » فلم ينقطع عنها ليلة واحدة مادام مقيماً فى القاهرة ، بل هو قد يكررها فى الليلة الواحدة ، وهو لايفتأ

---

(١) جريدة الجهاد القاهرية ١٤ من أكتوبر ١٩٣٢ .

بعد راحة نفسه ساعة يجلس فى حجرة صاحب « الجهاد » ويتحدث إليه ، ثم يتناول قهوته وتُقِله سيارته فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فيأوى إلى فراشه .

وصل دار « الجهاد » حوالى الساعة العاشرة من مساء الخميس . ولما رأى . . حجرة صاحب « الجهاد » تموج بالزائرين تلك الليلة رغب فى التحول إلى حجرة سكرتيرية التحرير فجلس هناك . وفطن الأستاذ (توفيق دياب) صاحب « الجهاد » إلى جلوس « شوقى » فى الحجرة المجاورة فاستأذن من زواره . وانتقل إلى حيث يجلس « شوقى » وجعل يحييه . ويسأله عن صحته فيحمد الله عليها . ثم بدا « لشوقى » أن يدخن سيجارة وأن يقدم أخرى لصاحب « الجهاد » وجلسا يدخنان . وحانت التفاتة من صاحب « الجهاد » فلمح « شوقى » يعالج سعلة خفيفة . فاستفسر منه عن أسبابها . ورجا أن تكون آثار برد أوتسرب هواء فأجابه « شوقى » إنى أشعر بآثار برد فى قصبة الرئة ، وقد يكون مسبباً عن تغيير الأجواء بين الفصلين ، ثم شرب القهوة . ولم يبد على ملامحه ولا على قسماته شىء غير مألوف . انتهى حديث البرد ثم قال لصاحب « الجهاد » : لعلى أصيب دفئاً فى بيتى الآن فلأتأهب للذهاب . فودعه صاحب « الجهاد » كما يفعل كل ليلة . ولما أشرف على اعتلاء السيارة قال للسائق : رويدك فى السير فإن أمامك أربطة من الجنود فى منطقة الجيزة ، وقد شاهدت مايفعلون عند مغادرتنا للمنزل . وسارت به السيارة إلى ماينتظره بعد ساعات .

بلغ « شوقى » منزله الساعة الحادية عشرة ، وصعد إلى مخدعه ، وطفق خادمه الخاص يقوم بخدمته ويهيئ له حوائج الليل ثم أرخى عليه سدول الكلة ، وذهب لينام .

وماكاد الخادم يدخل فى النوم حتى سمع صلصلة الجرس يستدعيه إلى حجرة

سيده . فقاه مسرعاً . وله عادة قد جرت على ذلك . فلما انتهى إلى حجرة النوم رآه مستيقظاً وكانت الساعة الثالثة أوتزيد فشكا بعض ضيق فى التنفس ، وطلب ماء ساخناً وورق كافور ، فبادر الخادم وأحضرهما . غير أن «شوقى» رأى هذه النوبة لاتعالج بعلاجه هو الذى يباشره «بنفسه» فطلب إلى الخادم استدعاء أحد الطبيبين اللذين يعالجانه دائماً (الدكتور برسكا . والدكتور جلاد) فذهب الخادم يستدعى بالتليفون الدكتور «جلاد» . ثم عاد إلى الحجرة ، فرأى سيده يطلب استدعاء أفراد الأسرة وإيقاظهم . ليراهم تلك الساعة . فصدع بالأمر ، ثم عاد إليه يخبره أن السيدة البارة قرينته ستحضر غير أن «شوقى» رأى الفترات الباقية تتلاحق ، وأن الحين وشيك . فأراد ليقول الكلمة الأخيرة ولو لم يحضر أحد من أفراد أسرته . قال لتابعه : «إنى أشعر بانتهاء أمرى فبلغ يا «أحمد» سلامى وتحيتى إلى أصدقائى ، وقل ذلك (لأحمد أفندى عبد الوهاب) فهو يعرفهم . وهنا حضرت السيدة قرينته فإذا هو يسلم الروح إلى بارئها . وقد حضر الطبيب ولكن لات حين علاج ، فقد حم القضاء ، وسكنت تلك الأنفاس التى كانت تروّح على الناس فى فترات الحياة كلما اشتدت نكباء الدنيا !

وشيعت جنازة أمير الشعراء فى جمع حاشد من الناس ، من داره كرمة ابن هانىء ، ولم تكن جنازة ضئيلة القدر قليلة الأفراد كما قال الدكتور (زكى مبارك) ، فقد نشرت الصور الفوتوغرافية للجنازة فى الصحف ، وقد حمل نعشه أعضاء «جمعية أبولو» ومنهم الدكتور (زكى مبارك) نفسه .

وقد رثاه على صدر جريدة الجهاد صاحبها الأستاذ (توفيق دياب) كما رثاه على صدر جريدة البلاغ صاحبها الأستاذ (عبد القادر حمزة باشا) .

وألقى الأدباء والشعراء كلمات وقصائد على قبره وقال الدكتور (إبراهيم ناجى) من قصيدته :

ماكنت إلاّ أمة ذهبت والعبقرية أمةُ الأمم
أو شعلة أبصارنا خلبت ومنارة نصبت على علم

وتولت وزارة المعارف تنظيم حفلة الأربعين لتأبين أمير الشعراء ، فدعت إليها البلاد العربية . وجاء أهل الشعر والأدب من أقطار العرب كافة .

لم يوجد عند العرب شاعر أكثر إنتاجاً من شوقى . وظل يقول الشعر حتى آخر أيام حياته . بل إنه كان فى سنواته الأخيرة أعظم خصباً ، وأوفر شعراً ، وأعمق عبقرية .

وقد جمع شعر شوقى فى ديوان (الشوقيات) وهو أربعة أجزاء . ولكن الدكتور (محمد صبرى) اشتغل فترة طويلة فى جمع مالم ينشر من شعر شوقى ، وأصدر كتاب (الشوقيات المجهولة) فى جزأين ، وهو بذلك يكمل الشوقيات .

أما مسرحياته الشعرية المنشورة فهى : مصرع كليوباترة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلى بك الكبير .

وفى النثر له كتاب (دول العرب وعظماء الإسلام) ومعظمه أراجيز مزدوجات التزم فيها من القوافى مالا يلزم – على طريقة أبى العلاء – وهى تتحدث عن تاريخ الإسلام منذ عهدة النبوة حتى عهد الفاطميين .

وله أيضا فى النثر رواية (أمير الأندلس) وكتاب (أسواق الذهب) .

تناول شوقى فى أشعاره موضوعات كثيرة متعددة : فله شعر تاريخى وسياسى واجتماعى وإسلامى ، وله شعر فى الوصف والغزل والمدح والرثاء والحكمة والأخلاق ، كما أنه له شعر تعليمى إلى جانب الفن الذى ابتدعه فى الشعر العربى وهو المسرحيات الشعرية .

وقد صدرت كتب ودراسات ، وكتبت مقالات عن شوقى يصعب حصرها ؛ كما ترجمت بعض آثاره الشعرية إلى اللغات الأجنبية .

ومما يجب ذكره أنه عندما أنشئ كرسى الأدب المصرى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة أطلق عليه اسم كرسى (شوقى) . تكريماً لأمير الشعراء .

وهذه الصفحات التى أقدمها إليك عن بعض الشخصيات فى حياة شوقى ليست إلا قراءة بين السطور . أرجو أن تلقى ضوءا جديداً على حياة أمير الشعراء .

إن حياة العباقرة تظل وهجاً دائماً يضىء طريق الشعوب . . وأمير الشعراء وهج لاينطفئ . ونور لايخبو . وسيظل العرب يتغنون بشعره فى كل الأجيال .

عبد المنعم شميس

١ – الشيخ زكى سند

خلال رحلتى الطويلة مع الأدب كنت أحاول معرفة الخفايا والأسرار ، وقد نبهنى إلى هذا منذ بدايات حياتى أستاذى وشيخى (أمين الخولى) ، وكأنه كان يريد عودة عصر الرواية ، فيروى التلميذ عن شيخه ماسمعه منه . ولكن الشيخ (أمين الخولى) كان أكثر دقة وعلماً من سابقيه ، لأنه كان يوصينى دائماً بالتشكك فيما أسمع مهما كانت شخصية الذى أتحدث معه ، كما كان يردد كثيراً قول القدماء : إن المعاصرة صعبة : ومعنى ذلك أن المعاصر لايستطيع أن يحكم على عصره ، وأحداث عصره ، ورجال عصره ، حكماً صحيحاً بعيداً عن الهوى .

وقد أخذ الأوربيون هذه الفكرة عن السلف العالم من المسلمين الذين تحرجوا من إصدار الأحكام على معاصريهم . وقالوا كلمتهم الناصعة : إن المعاصرة صعبة . وأنت ترى كيف يحفظ الإنجليز وغيرهم وثائق السياسة سنين عدداً ، حتى تتغير

الأحوال وتتبدل الأجيال . ويأتى جيل جديد وعصر جديد يرى فى هذه الوثائق رأياً غير ما رآه السابقون .

ذات يوم أردت أن أعرف شيئاً عن حياة الشيخ (على الليثى) شاعر إسماعيل الخديو فقال لى الشيخ (أمين الخولى) : اذهب إلى السيد (على البيلاوى) نقيب الأشراف فى مصر . فإنه من معاصرى الشيخ (على الليثى) ، وله به معرفة . ولكن إياك أن تأخذ الكلام على علاته .

وقابلت السيد (على البيلاوى) مرات عديدة فى قصره بالحلمية الجديدة بالقاهرة . واستمعت إليه . وأخذت منه . ولكن الصورة ظلت شاحبة باهتة . فلم أعرف حقيقة الشيخ (على الليثى) وهو شاعر إسماعيل ونديمه وصفيه حتى اللحظة الأخيرة فى لحظات ملكه . بل إنه هو الذى ودعه باكياً فى مقطوعته الشهيرة :

أنا أستحق اللى جرى   ما حد غيرى اللى انظلمْ
طاوعت أسباب الهوى   حتى غدا خصمى الحكمْ

وقد لحنها محمد عثمان فى قصر الجزيرة (فندق عمر الخيام بالزمالك) ، وغناها (عبده الحامولى) بين يدى الخديو المعزول . فبكى إسماعيل وأبكى من حوله ، وهو يردد مع المغنى :

أنا أستحق اللى جرى .

فى حياة الشعراء خفايا وأسرار . وقد ظل سر الشيخ (على الليثى) مسجوناً فى صندوق جمع فيه أوراقه . ولعن من ينشرها . ثم ضاع الصندوق ، وضاعت الأوراق . ومازال صديقى (المهندس الزراعى أحمد عبد الجواد) سبط الشيخ على الليثى يعدنى بالصندوق الضائع حتى اليوم !

وذات يوم قدمت إلى إحدى السيدات قصيدة للشاعر إبراهيم ناجى مكتوبة على علبة سجائر . وقد نشرتها فى مجلة الأدب التى أصدرتها بعد وفاة شيخى (أمين

الخونى) . ثم انطفأ نور هذه المجلة وسط الزحمة والدخان الكثيف الذى أحرق الأدب ، وأطفأ أنواره .

كان (إبراهيم ناجى) يكتب قصائده على علب السجائر . ويكتبها بأقلام الحواجب التى تستخدمها النساء إذا لم يجد معه قلماً . وقد يكتبها بوسائل أخرى كثيرة لايعجز عنها الشاعر ، بل يتلذذ بها الشاعر .

ألم يكن شعر أبى نواس يكتب على عصائب الحسان . وعلى المناديل ، وعلى غيرها من ثياب النساء فى عصره ؟

وقد روى الرواة أن أمير الشعراء كان يكتب بعض قصائده على علب السجائر ، وكانت علباً غليظة الورق ظهرها أبيض ، ويقال : إن شوقياً كان يجلس مع أصحابه ذات ليلة فى فندق سميراميس ، فهب واقفاً وتركهم . ثم انطلق إلى كوبرى قصر النيل يتمشى . وكتب على ظهر علبة السجائر :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟

وكان هذا المطلع هو مطلع حواره مع نهر النيل ، ثم كان مطلع قصيدته الرائعة عن النيل .

ولكن الدكتور (زكى مبارك) له رواية أخرى عن المناسبة التى دفعت أمير الشعراء إلى كتابة هذه الرائعة البديعة ، وسأحدثك عن ذلك عندما نأتى إلى سيرة (زكى مبارك) الذى قال : إنه حضر ولادة هذه الدرة الغالية .

المهم هو أن (شوقى) كتب القصيدة عند كوبرى قصر النيل أمام فندق سميراميس رحمه الله .

وكنا نجلس فى فندق سميراميس فى أثناء زهوة الدنيا وبريقها ولمعانها ، ونسهر حتى يوشك الديك أن يصيح ، ومعنا الشاعر المبدع (كامل الشناوى) ، وكفها بين كفيه ، وعيناها فى عينيه . . أعتذر اليك . . كان هو معنا ، ولم نكن نحن معه .

فهو صاحب الحكمة والضحكة والهمسة والنادرة .. وهو العاشق بلاعشق . المحب
المحب .

وكان (كامل الشناوى) يقول الشعر لنفسه مع نفسه . ولاتسمعه منه حتى يكتبه وحيداً بعيداً محققاً . وهو شاعر مقل . ولكن قليله مثل الألماس النادر لاتجد له مثيلاً بين الجواهر .

آه ! لو عاش المتنبى معنا لحظة واحدة لغير مطلع قصيدته :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى .

وقال :

الحب والليل والأنداء تعرفنى .

كان الندى يسقط على الرءوس والكئوس ، حتى تهتز القلوب وتصحو النفوس مع صحوة الفجر .

والشعر ابن ليل .

ذات ليلة . قلت : (لكامل الشناوى) : إن أبا نواس قال :

اسقنى حتى ترانى أحسب الديك حمارا

فأين حمارتك ؟

وكانت حمارته هى سيارته التى حملتنا معاً إلى المعادى . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة ، ليصطبح بوجه الصباح ، عندما تشرق الشمس . فقد كان لاينام قبل أن يرى نور الصباح !

أسفاً على ذلك الزمان الذى كان يقال فيه شعر .

كنا نتنسم فيه روح شوقى وريح شوقى تهب علينا من الجيزة الفيحاء .. من كرمة ابن هانئ .

وقد قسم الله لى أن أولد وأنشأ فى الحى الذى ولد فيه شوقى ونشأ ، بل إن

والدى تعلم فى المدرسة التى تعلم فيها شوقى وهى مدرسة (الشيخ صالح أبى حديد) بحى عابدين . . وقد عرفت منذ طفولتى وصباى الأماكن التى سار فيها أمير الشعراء وسلكها . حارة بعد حارة . وشارعاً بعد شارع . بل إن والدى سلك طريق شوقى فى التعليم . حتى مدرسة الحقوق ، فارتبط الحب الأبوى والحبُّ الشاعرى على غير قصد منى ولامعرفة .

وعندما كنت تلميذاً فى المدرسة الإبراهيمية الثانوية زاد عشقى لشوقى . وحفظت روايته (مجنون ليلى) وقدمتها ومعى زميلى الإذاعى الشهير (عبد الوهاب يوسف) على مسرح المدرسة فى حفل ختام تخرجنا قبل أن نذهب إلى الجامعة . وكان (عبد الوهاب يوسف) هو بطل المسرحية . . وهو قيس ، وقد لمع رحمه الله ، وكان له نبأ . ثم انطفأ . ولاحول ولاقوة إلا بالله .

وذات يوم قال قائل :

– إن الشيخ (زكى سند) هو الذى يكتب لشوقى أسعاره .

وكان الشيخ (زكى سند) يسكن فى حارة السقايين ، على بعد خطوات من دار شوقى فى حى الحنفى ، وكان مدرساً للغة العربية فى مدرسة الآباء اليسوعيين .

الشيخ (زكى سند) !

هل تهتز الصورة الجميلة الرائعة بسبب الشيخ (زكى سند) ؟

وكان معنا شاب مكفوف مفسود ممن حفظوا القرآن ، ولفظهم الأزهر ، فلم يصل إلى شىء فى العلم غير المهاترة والسباب ، وكان يقول : إنه أكثر علماً من (طه حسين) ، وأنصع بياناً ، وأقول قولاً وكلاماً ، وكان ينشر بعض كلامه فى جريدة (كوكب الشرق) التى أصدرها (حافظ عوض بك) السكرتير السابق للخديو عباس حلمى المخلوع ، ثم تولى رياسة تحريرها فيما بعد (طه حسين) .

أنا لاأذكر اسم هذا الشاب الذى خلع الجبة والعمامة ، وتزيا بزى طه حسين

ووضع على عينيه نظارة سوداء . ولكنني أذكر أنه أشاع فى الحى بعد إشاعته عن نفسه بأنه أعظم من (طه حسين) أن الشيخ (زكى سند) هو الذى يكتب لشوقى أشعاره .

وعرفت أن هذا الشيخ (زكى سند) من حارة السقايين . وكان لى فيها أهل ، وكان لجدى هناك بيت . فأغرانى نزق الصبا أن أبحث عن بيت الشيخ (زكى سند) لأعرفه . وأعرف حكايته . فسألت . وكان لى صاحب عجوز من أبناء الشراكسة . ونحن من أبناء الفلاحين . اسمه (حسن أفندى) وله بيت كبير فى حى الحنفى . على مقربة من بيت والد أمير الشعراء . وكان (حسن أفندى) رجلاً طروباً بالشعر والغناء . فسألته عن بيت الشيخ (زكى سند) حتى أراه ، وأتحدث معه . فقال لى :

– لاتتعب نفسك ياولدى . . فقد مات الشيخ (زكى سند) من زمان . . وليس له بيت . فقد كان يسكن بالأجرة عند امرأة تبيع البرتقال .

ودعانى نزق الشباب إلى البحث عن المرأة البائعة البرتقال ، فوجدتها على باب حارة السقايين . وسألتها عن الشيخ (زكى سند) فقالت لى :

– تعيش إنت . . مات من زمان . . الله يرحمه . ولكننى ظللت أبحث عن الشيخ (زكى سند) .

سألت صاحبى الأديب الذى نسيه الناس – وأسفاه – الأستاذ (راشد رستم) . وهو واحد من العارفين بالسير والتواريخ ، وقد مضى رحمه الله ، ولم يقل لنا شيئاً مما نريد بعد أن أضر به الدهر كما يقولون ، ولكنه ظل أديب عصره ، وفارس ميدانه فى الشعر والنثر ، ويكفى أنه ترجم بعض قصائد شوقى إلى الإنجليزية ونشرها فى لندن . كما ترجم قصائد أخرى لشعرائنا المحدثين . . هل تعلمون ؟

كان الأستاذ (أربرى) يقول : إن (راشد رستم) أقدر أدباء العرب على

ترجمة الشعر لأنه شاعر .

و (راشد رستم) من الأكابر الذين يشار إليهم . وهو من كبار المثقفين المصريين فى العصر الحديث . بل إنه واحد من الذين قال (محمود سامى البارودى) فى أمثالهم :

خلقت عيوفاً لاأرى لابن حرة علىَّ يداً أغضى لها حين يغضب

وكان منهم (سعد زغلول) وقد تمثل بهذا البيت الشهير فى إحدى خطبه الرنانة .

أما الأستاذ (أربرى) فإنه كبير المستشرقين الإنجليز فى العصر الحديث ، وقد ترجم قطعة من (مجنون ليلى) لأمير الشعراء .

لقد نقد (أربرى) رواية (مجنون ليلى) من وجهة نظر المسرح ، وكأن النقاد عندنا ممن يبحثون عن الساقطة واللاقطة قد وجدوا ما يريدون . فهاجموا (أحمد شوقى) بأقوال الناقد الإنجليزى ، ولم يفهموا وجه النقد ، ولاوجه الحقيقة .

شوقى شاعر وليس ممثلاً ، وشكسبير شاعر وممثل .

هذه هى القضية التى لايفهمها نقاد الأدب .

حاسب شوقى على شعره لا على تمثيله .

وحاسب شكسبير على شعره وتمثيله .

بعد بنا هذا الحديث عن الشيخ (زكى سند) الذى أبحث لك عنه ، ولكنه حديث قريب من الموضوع ، لأن الشيخ (زكى سند) ماكان له أن يكتب مسرحيات شعرية .

قال لى (راشد رستم) : إن الشيخ (زكى سند) كان من أساتذة شوقى فى اللغة والنحو ، وكان يسكن فى حارة السقايين على مقربة من بيت شوقى فى حى الحنفى بعابدين .

ثم أجاب (داود بركات) رئيس تحرير الأهرام في اللحظات التي سطع فيها نجم شوقي وهو يتلقى تحية (أمير الشعراء) على السؤال الحائر . فقال (داود بركات) :

« كان (أحمد شوقي بك) يسكن داره في حي الحنفي . والشيخ (زكي سند) مؤسس جماعة (مكارم الأخلاق) يسكن في حارة السقايين . وكنت أسكن في هذا الحي . فكنا متجورين . وكنا كل صباح نلتقي في الطريق . فيذهب شوقي إلى سراي عابدين . والشيخ زكي إلى مدرسة اليسوعيين للتدريس . وأذهب أنا إلى جريدة المحروسة . فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لايصدقون أن خريجاً من خريجي مدارس فرنسا (كأحمد شوقي) يستطيع قرض ذلك الشعر الراقي . كقصيدته في مدح الخديو توفيق :

لكَ مصرُ يجري تحت عرشك نيلها ... ولك البلاد عريضها وطويلها

وكقصيدته في مؤتمر جنيف :

همت الفلك واحتواها الماء ... وحداها بمن تقل الرجاء

وكلتا القصيدتين كان الطلبة يحفظونها . فكانوا يقولون : إن الشيخ (زكي سند) صديقه هو الذي يساعده في نظم هذه القصائد . لما يرونه بين الاثنين من الصداقة . ولاجتماعهما كثيراً لأنهما من حي واحد ! » .

ولكن شخصية الشيخ (زكي سند) كانت من الشخصيات المؤثرة في حياة شوقي برغم أننا لانعرف كثيراً عن هذا الشيخ الأزهري الذي صاحب أمير الشعراء ، وصادقه ، وأحبه : وليس للشيخ (زكي سند) نشاط أدبي في عصره ، ولم يعرف عنه أنه كان يقول الشعر أوينظم الشعر .

شيخ غامض مجهول . لم يذكره شوقي في ذكرياته . أو عند أصدقائه ، ولعله نسيه فيما نسي من ذكريات حي الحنفي الذي كوّنه وكون شاعريته الإسلامية .

وقد يكون الأمر على غير ما نتصور : فإن (أحمد شوقى) عندما أحس بأن الناس يتهمون شاعريته . ويعودون بها إلى الشيخ (زكى سند) أراد أن ينفى عن نفسه هذا الزعم الباطل . فسكت عن ذكر الشيخ الذى تعلم منه اللغة والنحو والعروض والقوافى .

ولكن (شوقى) يقول :

– أستاذى الوحيد الذى أعد نفسى مديناً له هو (الشيخ حسين المرصفى) صاحب (الوسيلة الأدبية) وتتلمذت سنتين (لحفنى بك ناصف) . وهما أستاذاى حقيقة اللذان استفدت منهما .

فأين مكان الشيخ (زكى سند) فى حياة (أحمد شوقى) بعد هذا الكلام ؟

إن الشخصيات التى عاشت فى حياة أمير الشعراء كثيرة . . وسأحدثك عنها لترى معى كيف يعيش الشعراء ؟

٢ — شيخ العروبة أحمد زكى باشا

ارتبطت حياة شوقى خلال مراحل الدراسة من مدرسة الحقوق ، وخلال الوظيفة فى القصر وصديقه (أحمد زكى باشا) الذى اشتهر بلقب شيخ العروبة .

كان (أحمد زكى) سر تشريفاتى الخديو (عباس حلمى) ، ثم تولى منصب السكرتير الثانى لمجلس النظار (الوزراء) ، وفى عام ١٩٠٨ كان سكرتيراً للجامعة المصرية القديمة . وأستاذاً لحضارة الإسلام فى الجامعة ، وقد اهتم بالأدب والدراسات الإسلامية .

يقول (أحمد شفيق باشا) رئيس الديوان الخديوى فى تلك الفترة ، ووكيل الجامعة المصرية القديمة بعد ذلك ، إن (أحمد زكى بك) مترجم أول مجلس النظار تشرف بمقابلة الجناب العالى يوم ٢٢ من مارس ١٨٩٢ وقدم لسموه كتاب (الرق فى الإسلام) الذى وضعه باللغة الفرنسية بعد أن ترجمه إلى اللغة العربية ،

وإن الخديو قابل هذا المجهود بالشكر والثناء ، فقد أثار الإنجليز حملة شديدة ضد الإسلام فى تلك الأيام لأغراض سياسية ، واتخذوا من موضوع تجارة الرقيق وسيلة للدعاية حتى يثبتوا أقدامهم فى مصر ، واختلقوا قضية أثارت الرأى العام عندما اشترى اثنان من الباشوات بعض الجوارى سراً من تاجر رقيق ، وهما (أحمد المنشاوى باشا كبير أعيان طنطا ، ومحمد الشواربى باشا) كبير أعيان قليوب ، وقدم الاثنان للمحاكمة وصدرت ضدهما أحكام .

المهم هو أن (أحمد زكى) كان من الشخصيات اللامعة فى عصره ، وقد عرف بهوايته للأدب ، فكتب دراسة عن (ابن زيدون) شاعر الأندلس ، ويبدو أن (شوقى) كان هو الذى أوحى لصديقه بالاهتمام بدراسة أدب الأندلس عندما نفى (شوقى) إلى تلك البلاد . فقد استغرق (أحمد زكى) فى دراسته حتى إنه كتب رسالة لطيفة قال فيها : إن المعتمد بن عباد وقف يتلقى التهنئة بالعيد من مهنئيه ، فكان يرد على كل واحد منهم بعبارة (تختلف عن العبارة) التى قالها لغيره ، وأحصيت العبارات التى رد بها ابن عباد فى ذلك اليوم فكانت مائة عبارة ، وبعد ذلك عجز الذين تابعوه عن ملاحقته !

هذه هى شخصية (أحمد زكى) الذى نصب نفسه للدفاع عن العرب والعروبة ، وكان دائم الحديث عن أمجادهم ، ثم اتخذ لنفسه أسلوباً رصيناً يذكرك أساليب القدماء من البلغاء ، ولكن بغير زخارف ، وكان يحلو له إقامة حفلات على الطريقة البدوية ، حتى إنه أقام حفلا للكاتب اللبنانى المعروف (أمين الريحانى) عند زيارته لمصر ، وكانت من أعاجيب الحفلات ، حيث نصب خيمة عند سفح الأهرام ، وأعد الطعام على طريقة العرب الأصلاء ، وارتدى هو نفسه زيهم ، وأعد الجياد والجمال للنزهة حول الأهرام وهناك نطق (أمين الريحانى) بكلمته الذائعة :

أنا الشرق عندى فلسفات . . من يبيعنى بها طائرات ؟

وسأحدثك عن هذا الحديث بعد أن نتحدث معاً عن قصة شوقي مع (أحمد زكي) .

بدأت صلة (أحمد زكي) بأمير الشعراء عندما كانا طالبين بمدرسة الحقوق . وقد التحق (أحمد زكي) بهذه المدرسة (١٨٨٣ م) وكان مقرها في دار البدراوي شارع سوق الزلط بباب الشعرية . ثم التحق بهذه المدرسة جيل من الوافدين سنة ١٨٨٥ بينهم فتى خيف نحيل ، هزيل ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة له عيون متألقة ولكنها متنقلة .

ووصف (أحمد زكي) زميله الجديد في مدرسة الحقوق عندما رآه أول مرة فقال :

(إذا نظر للأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متمادية . وإذا تلفت صوب اليمين فلايلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال . وهو – مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة – هادئ ساكن وادع كأنما يتحدث بنفسه أويتلاغى مع عالم من الأرواح . ما كان يلابسنا فيما تأخذ فيه من اللهو والمرح . ولايتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الطعام » .

هذه صورة مصغرة (لأحمد شوقي) عند أول عهدى به في حياة المدرسة » .

وكانت هذه الصورة المصغرة هي بداية الشاعر الذى عرفه زميله في الدراسة (أحمد زكي) .

قبل ذلك بدأت إشراقات الشعر العربي الجديد عند شاعر آخر يرتبط بالجنس والدم و (أحمد شوقي) وهو (محمود سامي البارودى باشا) الشركسي الذى حمل لواء الشعر الجديد في عصره ثم سلم شعلة الشعر لشاعر آخر من الأرستقراط هو (إسماعيل باشا صبرى) . وجاء (أحمد شوقي) ليحمل الشعلة التي كان يحملها (هوميروس) شاعر اليونان الأكبر وصاحب (الإلياذة والأوديسا) وحمل معها

الشعلة الأخرى التى حملها أبوالطيب المتنبى :

والشعر فى حيث النفوس تلذه   لافى الجديد ولاالقديم العادى

كان ديوان المتنبى مع (أحمد شوقى) أينما ذهب وقد أخذه معه إلى باريس كما حدثنا الأمير شكيب أرسلان عندما جلسا معاً على قهوة من قهاوى الشانزليزيه . وحدث بينهما أول تعارف .

ولكن علاقة أحمد زكى بأمير الشعراء تحددت فى مكانين هما : مدرسة الحقوق . وقصر عابدين .

وقد وصف شيخ العروبة حكاية تعرفه أومعرفته بأحمد شوقى فى مدرسة الحقوق وصفاً كاملاً ، وقال :

« كان المرحوم الشيخ (محمد البسيونى البيبانى) من علماء الأزهر المعدودين . وقد آتاه الله بسطة فى الجسم والعلم فكان بديناً فطيناً ، وكان قصيراً فوق قصير لأنه كان طويلاً مكيراً ، لاتخطئه النكتة البارعة اللاذعة . وكان يدرس لنا فنون البلاغة من كتاب من تصنيفه هو « حسن الصنيع فى المعانى والبيان البديع » .

أما خارج المدرسة فكان متخصصاً ينظم القصائد فى مدح الخديو توفيق ، كلما حل موسم أو أطل عيد ، وكان إماماً له فى الصلوات ، إلاصلاة الفجر .

ما لبث أن رأى فى تلميذه شوقى بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية ، فأنشأ الأستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها إلى المعية السنية فإلى « جريدة الوقائع المصرية » وغيرها من الصحف العربية . وكان شوقى – ببساطة التلميذ الناشئ يشير بمحو هذه الكلمة – وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت وتعديل ذياك الشطر .

والأستاذ يغتبط بقوله وينزل على رأيه .

وأحسن ما أذكره للأستاذ البسيونى – رحمة الله عليه – أنه كان يتحدث بذلك

إلينا وإلى الفرق المتقدمة علينا وفيها أصحاب السعادة (عثمان باشا مرتضى وأبو بكر يحيى باشا وعلى ثاقب باشا وشاكر بك أحمد) دون أن تأخذه العزة بالإثم وأن تغريه الكبرياء اللازم للمدرس بإنكار الفضل الذى منحه الله للدارس.

فهذه أول سعادة أحرزها شوقى.

على أن الأستاذ البسيونى تحدث بهذا النبوغ الباكر إلى صاحب العرش، وأفهمه أن بين أثواب الصغير (أحمد شوقى) براعة نادرة وذكاء رائعاً، وأنه خليق برعايته العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكانت هذه الشهادة أكبر الأسباب التى حفزت الخديو (توفيق ١٨٨٧) إلى إرسال شوقى على نفقته الخاصة لإتمام الدراسة العلمية فى باريس ولتغذية مواهبه الغريزية بما يراه فى الغرب من روائع البدائع، وقد تحققت له وفيه الآمال.

أما صلة شوقى بأحمد زكى داخل قصر عابدين فإنها تكاد تكون مجهولة، ولم يتحدث شيخ العروبة عن حياة شوقى فى القصر، مع أن شيخنا كان كثير الثرثرة، وكان يحلو له دائما أن يتصدر المجالس، ويكتب الكلمات، ويروى عن نفسه وعن غيره الروايات، كما كان يسافر دائماً فى معية الخديو (عباس حلمى). ولكن (شوقى) لم يكن فى أذيال الخديو ولم يضع نفسه فى حاشيته مع أنه كان محسوباً عليه فى الحاشية.

كان شوقى شاعر الأمير، وقد سبقه إلى هذا اللقب الشيخ (على الليثى) شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية أيام إسماعيل، وسبقها قبل ذلك الشيخ (محمد شهاب الدين) شاعر (محمد على) ثم شاعر (عباس الأول). وقد أخطأ الذين كتبوا تاريخ الأدب المصرى الحديث عندما قالوا: إن الشاعر الرسمى لدولة محمد على هو السيد على الدرويش. فإن الدرويش لم يظفر بهذا اللقب، ولذلك ارتمى تحت أقدام (إبراهيم باشا) وحاول أن يصبح شاعره المداح، ولكن إبراهيم كان مشغولاً

عن الشعر بالحرب .

ويبدو أن معرفة شوقى للشيخ على الليثى جعلته يجدد مكانه فى قصر عابدين . وقد ذكر شوقى أن المرحوم الشيخ (على الليثى) كان كلما التقت عيناه وعيناه . أنشد قول المتنبى :

محاجر مسك ركبت فوق زئبق .

كما قال شوقى عن ذكرياته مع الشيخ على الليثى :

« حدثنى سيد ندماء هذا العصر الشيخ على الليثى قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد ، فقص على حلما رآه فى نومه ، فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن لك ولد يخرق - كما تقول العامة - خرقاً فى الإسلام .

ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت ، وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام ، فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقى ، فوالله ماقالها قبل فى الإسلام أحد .

قلت : وما تلك يامولاى ؟

قال : قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

وهاهى فى يدى أقرؤها فاستعذت بالله وقلت :

- الحمد لله الذى جعل هذه هى (الخرق) ولم يُضِرَّ بالإسلام فتيلاً .

وأنت ترى من هذا الحديث كيف عرف أمير الشعراء هذا الشاعر الذى كان يهز قصر عابدين هزاً فى حياة إسماعيل ؟ عندما كان شوقى طفلاً يحبو . فإن الشيخ (على الليثى) كان من الشخصيات الهامة والخطيرة فى عصره . وكانت تربطه بعلى بك شوقى والد أمير الشعراء صلة قوية . فقد كان على بك شوقى موظفاً فى القصر . ويبدو أنه كان من المعجبين بالشيخ على الليثى . حتى إنه كان يحدثه عن أحلامه .

ورأى شوقى كيف كان بعض الباشوات يعامل الشيخ (على الليثى) فى قصر عابدين حتى إنهم كتبوا على باب غرفته : « إنما نطعمكم لوجه الله » !

وقد أخطأ أحمد زكى باشا فى رواية هذه الحكاية عندما قال : إن الذى كتب هذه الكلمة هو (محمد عثمان جلال) مترجم روايات موليير ، وصاحب الترجمة الرائعة (الشيخ متلوف) . لأن (عثمان بك جلال) لم يشتغل يوماً واحداً فى حاشية إسماعيل أو فى قصر عابدين . ولكن الذى كتب هذه الكلمات هو (مصطفى باشا العرب) الذى كان بحكم وظيفته فى القصر رئيساً للشيخ على الليثى ، وقد غاظه الشيخ وسخر منه . وقال فيه قصيدة مطلعها :

الموت والجوع والإفلاس والجرب

ولا يكون رئيسى مصطفى العرب

وقد تعلم شوقى هذا الدرس . ولم يسمح بأن يكتب على باب غرفته فى القصر :

– إنما نطعمكم لوجه الله .

كما فعلوا مع الشيخ على الليثى . وقد روى (عباس محمود العقاد) رواية أخرى عن معاملة باشوات القصر لشاعر القصر . وقال : إن (خيرى باشا) مهردار الخديو (أى حامل الأختام) هو الذى ضايق الشيخ الليثى حتى اضطره إلى تأليف مقطوعته اللطيفة :

عندنا طاحونة فى البلد

لكن تقيلة ع الحمار

دورت فيها البغل عصى

دورت فيها المهــــــردار !

كما نسب وضع لافتة (إنما نطعمكم لوجه الله) على باب غرفة الشيخ إلى

خيرى باشا المهردار .»

إن تاريخ الأدب المصرى الحديث ضائع للأسف . ولم يكتبه أحد حتى اليوم . بل إن معظم أحداثه لم تسجل . لأن تاريخ مصر الحديث لم يسجل أيضاً . وليس تاريخ الأدب إلاجزءاً من التاريخ العام .

لقد عمل شوقى فى ديوان المعية السنية كما يقول أحمد زكى الذى كان يقوم بوظيفة تشريفاتى . وكان عباس حلمى لايتذوق الأدب العربى . ولكن الظروف السياسية جعلته يهتم بهذا الأدب . فظل شوقى يتدرج فى الصعود إلى مكانته حتى وصل إلى الذروة العليا . بل إلى الغاية التى ليس وراءها غاية . فأصبح من أقرب المقربين . ومن أصحاب الكلمة المسموعة ، والرأى النافذ ، عند عباس .

وكانت علاقته بأحمد زكى هى علاقة الود والزمالة ، حتى إنه كان يتوسط عنده فى شئون بعض موظفى القصر ، وكان شوقى يلبى طلبات صديقه .

وعندما نفى أمير الشعراء إلى الأندلس وقعت حادثتان هامتان اشترك فيهما أحمد زكى :

وكانت الحادثة الأولى عندما أرسل إليه شوقى من منفاه يطلب بعض الكتب . وقد كتب أحمد زكى بقلمه يصف ما حدث ، وأتركه لك :

« من هناك كاتبنى شوقى يطلب كتباً يستعين بها على تعرف مجد الإسلام وفخر العروبة فى الأندلس . فبادرت وأرسلت إليه (نفح الطيب) و (المعجب بتلخيص أخبار المغرب) و (قلائد العقيان) وأيضاً . كتاب رحلتى (السفر إلى المؤتمر) .

ماذا أقول عن دهشتى بعد أسبوع ؟ أعاد لى الرقيب العسكرى تلك الكتب ومعها كلمة فيها ملاحظة على أن هذا الصنيع من موظفٍ بالحكومة قد لايتسق لواجبات الوظيفة !

وبعد ذلك بيومين أوثلاثة جاءنى الصديق عديل شوقى بك وهو أحمد بك عمر

لأتوسل إلى المرحوم رشدى باشا حتى يسعى عند السلطة فى عدم إعادة المال الذى كان أرسله إلى شوقى ليعيش به فى بلاد الغربة . فكأنها كانت تريد أن يتكفف شاعر الشرق برغم ثروته الطائلة أو أن يموت هو وأولاده من الجوع فى بلاد الغرب !
وشاء ربك تكليل مساعى رشدى باشا بالنجاح . فأخذ أحمد بك عمر يبعث بشىء من مال شوقى فى منفاه ، ولكن فى أوقات معلومة وبمقادير محدودة .

لا أريد أن أتحدث هنا عما كان المرحوم السلطان حسين يواليني به من أسباب الحفاوة والالتفات ، حتى إنه اختارنى بمثابة مستشار فنى لكريمته النبيغة صاحبة السمو سيدتى الأميرة قدرية هانم . لكننى أتحدث الآن عن أمر يخص (شوقى) فى أيام منفاه . . »

أما الحادثة الأخرى التى جرت داخل قصر عابدين بعد نفى شوقى بسبب قصيدته التى أرسلها إلى السلطان حسين كامل . والتى صارح فيها السلطان بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان فى مصر . وهى قصيدته المشهورة التى أشار فيها إلى الحال القائمة بقوله :

إن الرواية لم تتم فصولا .

وهى التى يقول فيها :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا؟

وكانت كلمة شوقى : إن الرواية لم تتم فصولاً : قد سارت فى مصر كما تسير النار فى الحطب . وأصبحت من الأمثال السائرة . وأقلقت السلطة البريطانية التى أمرت بنفى شوقى من مصر .

وعندما كان شوقى فى المنفى وقعت الحادثة الأخرى التى يرويها أحمد زكى باشا . وأتركه يحكيها بنفسه لك . .

فهو يقول :

« وكان السلطان حسين يدعو الذين استخلصهم لوده ، فرادى وجماعات ، لتناول الغداء معه من حين إلى حين فى سراى عابدين . وحسبى أن أقول : إنه بعد الفراغ من الطعام تفضل فدعانى إلى تناول القهوة بالبهو الكبير . فجلس فى الركن الشمالى الشرقى والمرحوم محمود شكرى باشا الكبير على يمينه ، وصاحب هذه الذكريات على يساره .

أخذ يتحدث عن النهضة العلمية وعن التطور فى الحركة الأدبية ، فاستعرض الزمن الذى حدث فى الصحافة وفى الأغانى القومية . ودار الكلام بنوع خاص على المرحوم إسماعيل صبرى باشا وعلى ما أوتى من الفتوح فى هذه الأبواب التى جعلته إمام الشعراء فى كل فن من فنون العهد القديم . وفى كل مطلب من مطالب العصر الحديث .

ثم سألنى – رحمه الله – عن ترجمة كلمات كثيرة . ثم انتقل إلى الكلام عن طرافة الافتنان عند شعراء الإفرنج . وسألنى :

– أين العرب الآن من فى قدرته أن يماشيهم مع هذه (العقلية) الجديدة وهذه (الذهنية) الحديثة ؟

فقلت : إن هذه المزية قد تفرقت فى كثير من شعراء العصر ، ولكنها اجتمعت كلها فى شوقى . .

وهنا ظهرت لى إشارة من المرحوم محمود شكرى باشا ، فتشجعت بها على المضى فى الكلام ، وقلت لمولانا السلطان :

– إن (شوقى) ممن تزدان بهم الدول . وإن مثله لو كان فى زمان الخلفاء لتخاطفته دمشق وبغداد وقرطبة .

فتكررت الغمزات من ناحية شكرى باشا . . بالموافقة والمطابقة .

فاندفعت أتغنى بمحاسن شوقى ، وبما أفاض على العروبة والإسلام من نفثاته

وبما منحه للشعر والأدب من نفحاته ، وأن هذه وهذه حسنات باقيات وآثارها خالدة . وهنا تزايدت الإشارة الرقيقة والدقيقة من المرحوم شكرى باشا . .

فعاودت الهجوم على الموضوع ولاسيما أنى آنست من السلطان مايشعر بالرضا والقبول ، فقد التزم الإطراق والإصغاء فى سكوت وسكون .

وهكذا تماديت حتى قلت كلمة فيها جرأة . شجعنى عليها ما رأيته من موقف السلطان ، فقد قلت مامعناه بالاختصار :

– أيصح أن تبقى مصر محرومة فى عهدك السعيد بلبلها الغريد ، وأن يرفرف هذا الطائر الغريد الوحيد بجناحيه على قرطبة وطليطلة وعلى إشبيلية وغرناطة ، بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان ، إن الذى تترمقه الثقافة العربية والقومية العربية من ابن إسماعيل ومولى النيل أن يعمل بالخطة الكريمة التى رسمتها أريحيته النبيلة لنفسه التى صاغها الله من الخير للخير ، فيعيد إلى القاهرة رونقها المجتمع فى ثوب شوقى .

وهنا تكررت الإشارة وتوالت الغمزات من محمود باشا شكرى . فأدركت أننى قد أكون تجاوزت الحد ؛ ولكن السلطان مازال مصغياً ، كأنه يطلب المزيد من الكلام ، وماذا عسيت أن أقول بعد أن قد استوعبت كل مافى الصدر ، بكل مايجيش بالخاطر ؟ فبقيت ساكناً منتظراً تحول الحديث إلى موضوع آخر من السلطان نفسه ، أو صدور إشارته بالانصراف .

وقضى ربك بالخلاص من هذا المأزق .

فبعد برهة قصيرة وقف السلطان ، فوقفنا ، ثم تقدمت فقبلت يده الكريمة وانصرفت .

وقابلت فى الردهة الصديق المفضال (أحمد بك حسان) . ولما أنا أرفه عن نفسى بمحادثته ، وأتنفس الصعداء لخروجى من ذلك الموقف ، إذا بالمرحوم

شكرى باشا يهرول ورائى ، ثم طفق ينهال بتعنيفى على اندفاعى فى تقريظ شوقى برغم الإشارات المتوالية التى كان يبديها لى من حين إلى حين للتخفيف من غلوائى فى الحديث ، فلم يكن من سبيل للاعتذار سوى أن السلطان كان مصغياً تمام الإصغاء ، وأننى فهمت من إشارتك أنك راض عن صنيعى تمام الرضاء ، بل إنك قد تكون سبقتنى إلى تقرير هذه فهذا عذرى ، ومافعلت سوى نصح السلطان بما انطوت عليه سريرتى واستقر فى صدرى .

لست أدعى أن كلامى له أثر فى نفس السلطان . ولكن الذى أعرفه أن الله سبحانه وتعالى جعله يضيف حسنة كبيرة إلى حسناته الكثيرة ، فأصدر أمره بعد أيام إلى المرحوم رشدى باشا ليسعى باسمه الكريم لدى السلطة فى إرجاع شوقى إلى وادى النيل وقد كان :

ولكن (شوقى) العائد من المنفى بدأ يغير طريق حياته ، ويشارك فى الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية مشاركة عميقة مؤثرة .

وظل مرتبطاً بصديقه أحمد زكى باشا ارتباطاً وثيقاً .

وعندما جاء الكاتب اللبنانى المعروف أمين الريحانى إلى القاهرة عام ١٩٢٢ ، أقيمت له حفلات استقبال كثيرة ، كانت أعجبها حفلة شيخ العروبة عند سفح الأهرام كما تقدم :

كانت صحراء الأهرام مزينة بالأعلام المصرية ، وقد ضربت فيها المضارب تتخللها الجمال والأبقار ممثلة مساكن البدو ، وظهر الفرسان على صهوات الخيل يلعبون بسيوفهم ويرقصون بجيادهم على نغمات الطبول والمزمار . ونصب فى صدر المكان سرادق كبير لاستقبال المدعوين ، ومدت فيه مائدة الشاى حاوية لأطباق الفطير والتمر والحلوى .

وكان نجم الحفلة هو (أحمد شوقى) أمير الشعراء . وبعد الافتتاح وقف

الدكتور محجوب ثابت ليلقى قصيدة شوقى التى قال فى مطلعها :

قف ناج أهرام الجلال وناد　　هل من بناتك مجلس أو ناد ؟

وحيا أمير الشعراء الضيف الأديب الفيلسوف قائلا :

رفعوا لك الريحان كاسمك طيباً　　إن العماد تحية الأمجاد

وتخيروا للمهرجان مكانه　　وجعلت موضع الاحتفاء فؤادى

وقال شوقى فى هذه القصيدة بيتاً من الشعر مما كان يصفه القدماء بأنه أحسن بيت قالته العرب إنه يقول :

إن الذى ملأ اللغات محاسناً　　جعل الجمال وسرّه فى الضاد

لقد كان أحمد زكى باشا من كبار المتحمسين لشوقى ، وظل متعلقاً بعبقريته منذ كانا طالبين فى مدرسة الحقوق ، حتى ذهب شوقى إلى عالم الخلد .

كما كان زكى باشا بحكم صلته بشوقى وأسرته ونشأته يعرف كثيراً عن حياته الشخصية ، ولكنه لم يكتب عنها بالتفصيل ، وهو الذى عرفنا بأن بيت (على بك شوقى) والد أمير الشعراء كان خلف جامع الشيخ صالح (أبو حديد) بحى الحنفى بين السيدة زينب وعابدين ، وهو الذى ذكر لنا قصة زواج شوقى من ابنة (حسين بك شاهين) جار الأسرة الشوقية فى الحى ، وأحد أصحاب الثروة واليسار ، وقد رزقه الله بثلاث بنات تزوج شوقى إحداهن . كما تزوج المهندس أحمد بك عمر الثانية ، أما الثالثة فقد تزوجها يعقوب بك حلمى وهو من الأثرياء .

ولكننا لم نعرف حتى الآن كيف تم الزواج ؟ وما اسم هذه الزوجة ؟ لأن التقاليد القديمة كانت لاتذكر هذه الأشياء .

ولم يرث شوقى عن والده غير هذا البيت الذى تحدث عنه أحمد باشا زكى ، فقد ضيع الوالد كل ثروته ، حتى إن جدة شوقى لأمه هى التى كفلته ، وقدمته وهو طفل إلى الخديو إسماعيل حيث كانت وصيفة فى القصر ، وهذه السيدة اسمها

(تمراز) وهى من أهل بلاد المورة ، وقد سباها إبراهيم باشا فى أثناء حرب العثمانيين واليونان مع غيرها من بنات اليونان ، ثم أعتقها وزوجها (محمد بك حليم) أحد رجاله الأتراك وهو السبب فى اتصال أسرة شوقى بقصر عابدين .

٣ – الشيخ حسين المرصفى

قال أمير الشعراء فى حديث صحفى نشرته مجلة سركيس فى عدد (يونيو – أغسطس سنة ١٩١٥) وكان شوقى قد أدلى بهذا الحديث إلى سليم سركيس فى فبراير ١٨٩١ .

ذكر شوقى أنه وفق لنظم الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وأن أستاذه يومئذ كان الشيخ (حسين المرصفى) ، وقد قرأ عليه كتاب (الكشكول) لبهاء الدين العاملى ، وديوان الشاعر المصرى الرقيق بهاء الدين زهير .

فى تلك السن الباكرة قال شوقى :

قصارى العيش أن يذهب إن حلواً وإن مرّا

فإن شئت فمت عبداً وإن شئت فمت حرّا

وأعجب الشيخ المرصفى كثيراً بأول بيتين قالها تلميذه أحمد شوقى ، وبشره

بمستقبل فى الحكمة عزيز .

كما نشرت الأهرام فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧ حديثاً أجرته معه بمناسبة مهرجان الشعر الذى أقيم بعد ظهر اليوم السابق ، أى فى ٢٩ من أبريل حيث بايعته وفود العرب بإمارة الشعر .

وقال شوقى :

– أستاذى الوحيد الذى أعد نفسى مديناً له هو الشيخ حسين المرصفى صاحب (الوسيلة الأدبية) ، وتتلمذت سنتين لحفنى بك ناصف . وهما أستاذاى حقيقة اللذان استفدت منهما .

كما أعاد شوقى فى حديثه مع الأهرام أنه قرأ كتاب (الكشكول) على الشيخ المرصفى فى دروس خاصة . وأضاف أن الشيخ كان يحب هذا الكتاب كثيراً ، ويفضله على غيره من الكتب .

وقد كان (حفنى ناصف) الذى تخرج من مدرسة دار العلوم سنة ١٨٨٢ من تلاميذ الشيخ حسين المرصفى ، ويبدو أن الشيخ هو الذى رشح (حفنى ناصف) ليكمل معه (أحمد شوقى) معارفه الأدبية واللغوية .

ولكننا سنقف فى هذا الحديث عند الشيخ حسين المرصفى ، الذى كان نادرة عصره ، ولكنّ مؤرخى الأدب المصرى الحديث لم يلتفتوا إليه كما يحسن الالتفات ، ولم يدرسوه كما تجب الدراسة ، مع أنه الرائد الأول للنقد الأدبى فى العصر الحديث ، وكان ظاهرة من ظواهر العبقرية المصرية خلال مرحلة الإنتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

كان المرصفى أستاذاً للشاعرين الكبيرين : محمود سامى البارودى وأحمد شوقى . وهذا الذى نمّى العبقرية فى قلبيهما ، ولكن صلته بالبارودى كانت أشهر

من صلته بشوق .

وقد وصف المرصفي تلميذه (محمود سامى البارودى) قائلاً :

« هذا الأمير الجليل ، ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهي ذكاؤه . محمود سامى باشا البارودى » .

ثم تحدث عن شاعرية البارودى فقال :

« جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء ، ولشعر الأمراء كأبى فراس والشريف الرضى والطغرائى تميز عن شعر الشعراء ، كما سنراه ، ومصداق ذلك ما سألقيه عليك من قصائد أنشدها فى وزن قصائد لبعض مشاهير المتقدمين ورويها » .

وقد نشر الشيخ فى كتابه (الوسيلة الأدبية) عدداً من قصائد البارودى ، الذى ربطته به صداقة حميمة .

كتب البارودى عندما كان يحارب مع تركيا ضد روسيا (١٨٧٨) قصيدة من روائعه قال فيها :

ياناعس الطرف إلى كم تنام	أسهرتنى فيك ونام الأنام؟
أوشك هذا الليل أن ينقضى	والعين لاتعرف طيب المنام

ثم توجه الشاعر إلى أستاذه ، وقال له :

مولاى قد طال مرير النوى	فكل يوم مر بى ألف عام
يقتبل الصبح ويمضى الدجى	وينقضى النور ويأتى الظلام
ولا كتاب من حبيب أتى	ولا أخو صدق يرد السلام
من خلفنا البحر وتلقاءنا	سواد جيش مكفهرّ لُهَام
فتلك حالى لارمتك النوى	فكيف أنتم بعدنا ياهُمام؟

وأنت ترى أن الشيخ (حسين المرصفى) قد ربط البارودى ببعض فحول الشعراء من المتقدمين . وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى ، والشريف الرضى .

ولكن (شوقى) ارتبط فى ذهن المرصفى والشاعرُ الرقيق البهاء زهير. فقرأ معه ديوانه. والظاهر أن الشيخ لاحظ حداثة سن شوقى عندما بدأ معه رحلة الأدب. فاختار له من الشعر أسهله، وهو موقف يخالف موقف الشيخ مع البارودى، لأن البارودى عرف المرصفى بعد أن اقتحم الشعر اقتحاماً.

ولكن (شوقى) الشاعر الشاب اصطحب معه ديوان المتنبى عندما سافر إلى باريس للدراسة، وترك ديوان البهاء زهير الذى قرأه مع الشيخ. غير أن أمير الشعراء تعلم الدرس الأول من المرصفى وهو صاحب نظرية فى صقل المواهب الأدبية، يلخصها فى قوله:

« لاسبيل لمعرفة الصناعة (صناعة الأدب) إلابكثرة الحفظ، ورعاية مانبهناك على رعايته، ونورد لك مايكون مثلاً لما ينبغى أن تحصله فى حفظ، وترديد النظر فيه من قصائد لمشاهير الشعراء».

وكانت للمرصفى آراء جديدة فى فهم معنى الأدب، تخالف آراء القدماء الذين قالوا: إن الأدب هو الإلمام من كل علم بطرف.

وتتلخص تعريفات الشيخ المرصفى للأدب فى أقواله:

* اِعلم أن الأدب معرفة الأحوال التى يكون الإنسان المتخلق بها محبوباً عند أولى الألباب الذين هم أمناء الله على أهل أرضه، من القول فى موضعه المناسب له.

* حقيقة الأدب أن يعرف كلٌّ حدود وظيفته فلايتخطاها، حتى لايكون داخلاً فيما لايعنيه.

* مجمل الأدب أن يكون الإنسان بحيث يرضى عن غيره، ويرضى عنه غيره.

* الأدب معرفة الفنون الكلامية ومواقعها.

ولكن هذه التعريفات المتناثرة فى كتاب المرصفى لن توصلنا إلى تعريف للأدب

يمكن تحديده أومعرفة ملامحه . وهى فى مجموعها محاولة للخروج من القديم إلى الجديد . وهو يخلط معنى الأدب كفن بمفهوم الأدب كخلق حسن يتخلق به الإنسان .

والأمر الذى يسترعى النظر هو أن المرصفى الذى تتلمذ عليه الشاعران الكبيران البارودى وشوقى كان له رأى فى الشعر أوقعنا فى حيرة . فقد ذكر أنه ليس لمعرفة الشعر وصنعته كبير فائدة ، إذ لم يبق له طلب ، ولاترتبط به حاجة ، وغاية مالقائله اليوم إجادة التقليد .

أما النثر فقد تحدث عنه المرصفى ، وقال : إن الكتابة لايمكن الاستغناءعنها ، فهى من ضرورات الحياة .

وهذه النظرية التى دعا إليها المرصفى غريبة ، وهى لاتكاد تعرف قيمة الفن فى ذاته — شعراً أونثراً — وصلته بالحياة . كضرورة من ضرورات الحياة .

أما التقليد الذى تحدث عنه فإنه يحدث فى النثر كما يحدث فى الشعر ، ولكنه لايؤدى إلى التقليل من قيمة الشعر أو رفع قيمة النثر .

ويبدو أن المرصفى كان يعتقد أن اتباع البارودى لقوالب الشعر القديم إنما هو لون من التقليد ، ولعله كان ينظر إلى الشكل لا إلى المضمون ؛ فإن شعر البارودى كان شكلاً آخر غير شعر السيد على الدرويش والشيخ محمد شهاب الدين ومحمود صفوت الساعاتى وأشباههم من شعراء عصره . واعتقد المرصفى أن البارودى على قدم مع أبى فراس والشريف الرضى وأبى نواس .

ولكن الشيخ الناقد كان ينظر إلى الشعر من وجهة نظر واحدة ، ولذلك أصدر حكمه القاسى على الشعر .

أما النثر فقد كان تلميذه (عبد الله باشا فكرى) هو الذى يجدده ، وقد كسر هذا الكاتب العظيم قيود القديم فى جرأة ومقدرة وبراعة ، حتى إنه كتب النثر الفنى

باللهجة المصرية ، ولكن تجديد النثر أيسر من تجديد الشعر ، ولأن النثر ليست له قوالب محكمة مثل الشعر ، ولأن نماذجه فى الأدب القديم لها أشكال مختلفة : فهناك أسلوب القرآن الكريم وهو ليس من الشعر ولا من النثر ، ولكنه يمنح الكاتب من الأساليب والصور مايمكنه من الكتابة ، أما الشاعر فإنه لايفيد من القرآن إلا فى حدود السمو القرآنى الرفيع ، فإذا انحدر بشعره إلى أغراض أخرى كما فعل أبو نواس فإن القرآن بعيد عنه ، وهو لايستطيع أن يقترب من القرآن . وهكذا الشأن فى أسلوب النبى عليه الصلاة والسلام فى أحاديثه . كما أن التراث القديم من نثر الناثرين له أشكال مختلفة عند كبار الكتاب مثل ابن المقفع والجاحظ .

وعندما تصدى عبد الله فكرى لتجديد النثر وصل سريعاً إلى هدفه ؛ مما جعل الشيخ الناقد يقول هذا الكلام .

ولكن المرصفى برغم ذلك ظل معروفاً بأنه أستاذ الشاعرين الكبيرين : البارودى وشوقى . ولكنه لم يدرك الزمان الذى أصبح فيه أحمد شوقى أميراً للشعراء . .

وشخصية المرصفى من الشخصيات الباهرة ، فهو أزهرى مكفوف . كان أبوه من كبار العلماء فى الأزهر . وقد تصدى هو نفسه للتدريس فى الجامع الكبير .

وعندما أنشأ على باشا مبارك دار العلوم عين الشيخ حسين المرصفى مدرساً عاما . فبدأ تدريس العلوم الأدبية من كتابه الشهير (الوسيلة الأدبية) إلى جانب دروس الإنشاء التى جعلها جامعة للنحو والصرف ورسم الحروف والعروض والقوافى والبلاغة وأدبيات اللغة والمنطق . كما درس المرصفى علوماً أخرى فى الصحة وعلوم النبات والحيوان والطبيعة والفلك إلى جانب قواعد الإسلام وأركانه .

كان هذا الشيخ المكفوف دائرة معارف متنقلة .

وقد أتاحت له ظروف عصره أن يصبح مدرساً بمدرسة العميان والخرس التى

اسسها الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ ، وكانت أول مدرسة من نوعها فى مصر ، وقد أدخلت فيها طريقة (برايل) فتعلم المرصفى الخط العربى والفرنسى بالحروف البارزة بالحس باليد .

وأنت ترى أن المرصفى كان أول أزهرىٍّ مكفوفٍ تعلم الفرنسية . قبل طه حسين ، ولهذا الموضوع قصة .

كان الشيخ يجلس مع على باشا مبارك وزير المعارف ، وكان معه قنصل فرنسا ، والجليس يتحدث مع الوزير باللغة الفرنسية ، فغضب الشيخ لذلك ، وقال : يقول رسول الله ﷺ ، لايتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه ، ثم قام من فوره ، وبدأ يتعلم الفرنسية حتى أتقنها .

كما كان الشيخ يملك آلة للكتابة ، ويستخدمها ، وهى عجيبة أخرى من عجائبه .

وقد ترجم المرصفى نصوصاً من الفرنسية إلى العربية ، ومنها بعض أشعار لافونتين .

هذا الأستاذ الذى أوجزت له بعض ملامحه كان له أثر قوى فى نفس شوقى

وقد ذكرت لك رأى المرصفى فى شعر عصره ، وهو رأى يقلل من قيمة الشعر فى الحياة كما قلت . ولكن أمير الشعراء استطاع بالعبقرية أن يثبت خطأ النظرية التى دعا لها المرصفى .

وليس من شك فى أن (شوقى) الذى كان يتلقى دروساً خصوصية على هذا الشيخ قد عرف مجمل آرائه ، ولم تقتصر الدروس على كتاب الوسيلة الأدبية ، أوقراءة قصائد فى ديوان البهاء زهير ، أو تصحيح بعض الأبيات للشاعر الناشئ ، بل إنها بحكم الاتصال المباشر لابد أن تتناول قيمة الشعر .

وأنا أعتقد أن (أحمد شوقى) بدأ حياته الشعرية متحدياً لهذه الآراء التى

تنتقص من قيمة الشعر ، وأراد أن يثبت – وهو الموهوب – حقيقة الشاعر . وإذا لم يكن للمرصفى أثر فى حياة شوقى غير هذا لكفى ؛ فقد فجر الأستاذ فى عواطف تلميذه ومشاعره تلك الرغبة الهائلة الخلاقة التى جعلت من شوقى أميراً للشعراء العرب .

ولو عاش المرصفى ورأى تلميذه لغير رأيه فى الشعر . ولعرف أن مابدأه مع البارودى كان يجب أن يؤدى إلى شوقى .

يكفى أن يكون المرصفى أول ناقد عصرى فى الأدب العربى ، ويكفى أن يكون أستاذاً للبارودى وشوقى الشاعرين . ولعبد الله فكرى الكاتب الناثر . . ودعك من شعر عبد الله فكرى فإنه أقل من شعر الشيخ على الليثى .

٤ - شيخ الشعراء . . إسماعيل باشا صبرى

مازلنا حتى اليوم نكتشف أن أعذب الأغانى المصرية فى العصر الحديث كان يكتبها إسماعيل باشا صبرى الشاعر الذى نقل أنغام الطرب من الابتذال الرخيص إلى المعانى الرائعة الرفيعة .

نقل إسماعيل صبرى الأغنية المصرية من كلمات :

* طربوشه مايل على خده .
* الورد قال ياغصن البان
* سبل شعوره على قوامه
* قالت عصافير الجنة

إلى لون آخر من الشعر العاطفى الدافئ .

وقبل إسماعيل صبرى كانت أشهر مجموعة من مجموعات الأغانى المتداولة وهى

(سفينة شهاب) التى جمعها الشيخ محمد شهاب الدين شاعر دولة محمد على من أغانى مصر والشام .

ثم ظهرت فى عصر إسماعيل مجموعات أخرى من الأغانى التى لحنها وغناها عبده الحامولى ومحمد عثمان . وسيطرت عليها نغمة (أمان . . أمان . يالاللّى) التى ظهرت فى قصائد ركيكة أقحمت على المسرح فى ذلك الوقت .

وكان الشعراء يؤلفون كلمات الأغانى فى مصر منذ عهد بعيد . وقد نشر (السيد على الدرويش) سيد شعراء عصره مجموعة أغانيه فى خاتمة ديوانه المطبوع خلال عصر محمد على . وقد ترجم أدواراً من التركية إلى العربية .

وكانت للشعراء سفن غير سفينة الشيخ شهاب . ولكنها لم تشتهر ، بل إن نسخها المخطوطة مازالت مفقودة ، وقد يئست من الحصول عليها ، ويبدو أن الشيخ (محمد شهاب الدين) هو الذى تسبب فى اختفائها وضياعها حتى يشتهر وحده ، وتبقى له وحده (سفينة شهاب) !

كان الشيخ شهاب الدين صاحب السلطة فى عصر محمد على ، لأنه هو الذى كتب قصيدتين نقشتا بماء الذهب على شبابيك جامع محمد على من الداخل ومن الخارج ، وكان صاحب السلطة فى عصر عباس الأول ؛ لأنه أصبح شاعره المفضل ، وله فى كل قصر من قصوره غرفة وله معه منادمات وأحاديث ونكت .

أحب أن أقول لك : إن الألحان والأنغام والأدوار كانت تركية ، لأن مصر كانت تابعة من توابع سلطان آل عثمان .

كتب السيد على الدرويش أدواراً معربة نقلها عن التركية ، ومنها دور :

وجه بديع الجمال

عينه وسنا كحال

واللفظ عذب المقال

هذا سبب بهجتى

ويستمر الدور بهذه الألفاظ المصطنعة ، وفى نهاية كل رباعية يقول :

هذا سبب بهجتى

وقد ركبت هذه الكلمات على اللحن الموسيقى ، وهى كلمات تربط بين العامية والفصحى ، وليس لها إعراب . وفيها حركة أحياناً ، وسكون أحياناً . .

ولم يفهم الذين ينشرون (سفينة شهاب) هذه اللعبة ، وظنوا أن الشعر ليس له ميزان ، أومكسور ، لأنهم لم يدركوا أن الكلام كان يركب على اللحن الموسيقى . لا على موازين الشعر العربى ، أو أى موازين شعر نعرفها ، مع أنها موزونة ، ولها ميزان .

كانت عملية تعريب غريبة ، وهى تحتاج إلى دراسة صوتية .

من هذه الأدوار العربية دور :

وجهه الحَسَن همت فيه

وفى عيونه وفيه

عذب الملافظ فيه

أصل ابتهاج النظر

من بعده العقل راح

ألْمَى يسلى بَراح

للقلب منه انشراح

أصل ابتهاج النظر

وعملية التركيب اللفظى مع عملية التعريب جعلت هذه الأدوار شيئاً جامداً لايمت إلى الفن بصلة .

وعندما ظهر محمد عثمان وعبده الحامولى وألمظ فى عصر إسماعيل حاول الفنان

المصرى الخروج من هذا المأزق ، ولكن التأثير التركى ظل باقياً برغم الرغبة فى الخروج من التقليد والمحاكاة .

وقد أدرك الشاعر إسماعيل صبرى هذه الفترة ، وكان محمود سامى البارودى يرفض تأليف الأغانى لعبده الحامولى ، ويعتقد أن الشاعر لايجوز له الانحطاط إلى مستوى المغنواتى .

ولكن البارودى نفسه هو الذى طلب من إسماعيل صبرى تأليف الأغانى الوطنية لمحمد عثمان وعبده الحامولى ؛ لأن الشاعر الفارس العائد من المنفى وجد شيئاً جديداً فى الأغنية المصرية .

ليست هى أغنية :

عصفورى أهشه

وأنكش له عشه

أشهر أغانى ألمظ ، ولكنها أغنية إسماعيل باشا صبرى :

عشنا وشفنا سنين ومن عاش يشوف العجب
شربنا الضنى والأنين جعلناه لروحنا طرب
وغيرنا تملك وصال واحنا نصيبنا خيال

ثم أصبحت الكلمة التى يملكها الشاعر مملوكة للشعب ، ومن هذا الباب دخل أحمد شوقى على يد أستاذه إسماعيل صبرى .

ومن المعروف تاريخياً أن (أحمد شوقى) عرف البارودى ، والتقيا فى حلوان حيث تجاورا فى المسكن ، ولكن هل أثر الشاعر الفارس المهزوم فى الشاعر الشاب المنطلق ؟

كان البارودى قد خرج من باب القصر .

وكان شوقى قد دخل إلى بريق القصر .

وقال شوقى قصيدة مخزية فى استقبال أحمد عرابى الزعيم العائد من المنفى ، قال فى مطلعها :

صغارٌ فى الذهاب وفى الإياب   أهذا كل شأنك ياعرابى؟

بريق الذهب يغرى بالكذب .

وكانوا يقولون للشعراء فى الأزمان الغابرة : إن أعذب الشعر أكذبه .

ولكن إسماعيل باشا صبرى الشاعر الرقيق المصرى العريق ظل صادقاً لايكذب .

كان أول الشعراء الذين لايكذبون فى هذا العصر الحديث .

عواطفه لاتكذب ، إحساسه لايكذب ، وطنيته لاتكذب .

وقد نسيه كثيرون لأنه لم يكذب . . ولكنه كان المعلم .

عندما كان محافظا للإسكندرية تحمل وحده مسئولية الزعيم مصطفى كامل حين ألقى خطابه الشهير على مسرح زيزينيا وقال فيه كلماته الباقية :

بلادى . . بلادى . . لك حبى وفؤادى

أنت أنت الحياة . . ولا حياة إلا بك يامصر

وتحدى المحافظ الوطنى إسماعيل باشا صبرى سلطة القصر وسلطة الاحتلال البريطانى ، وسمح للزعيم الشاب بإلقاء قصيدته – لاخطابه – عن مصر الأسير فى أغلال الاحتلال .

قليلون هؤلاء الرجال ، ولكنهم ضوء الحياة ، ومبعث الآمال .

ثم تولى إسماعيل باشا صبرى منصب وكيل وزارة الحقانية (العدل) . ومكتبه هناك فى مواجهة مكتب (مصطفى كامل) زعيم الحزب الوطنى ورئيس تحرير اللواء . ولم يكن صبرى باشا يعود إلى بيته قبل أن يذهب إلى صديقه وصفيه وحبيبه مصطفى كامل باشا فى مقر جريدة اللواء . . وهو يتحدى السلطة كلها فى قصر

عابدين وفى دار المعتمد البريطانى .

هذه هى شخصية إسماعيل باشا صبرى ، صاحب السلطة ورافض السلطة .

الإنسان لايكون عظيماً إلا حينما يملك ويرفض ، والذى يملك لأنه يريد أن يمتلك ، أوالذى يرفض لأنه لايملك غير الرفض – لايساوى جناح بعوضة !

ولذلك كان الشاعر إسماعيل باشا صبرى عظيماً ، واستحق أن يلقب قبل كل شعراء عصرنا الحديث بلقب : شيخ الشعراء ، قبل أن يستحق شوقى لقب أمير الشعراء ، وقبل أن يحمل حافظ إبراهيم لقب شاعر النيل ، وخليل مطران لقب شاعر القطرين : أى مصر والشام .

وإسماعيل صبرى هو الأستاذ الحقيقى لشاعرية أحمد شوقى .

كانت والدة إسماعيل صبرى تقيم فى حلوان بسبب المرض ، وكان يزورها ، فالتقى هناك وأحمد شوقى . .

والنفوس الشاعرة تتلاقى دائما .

التقى شوقى والبارودى فى لحظات الضعف بعد العودة من المنفى .

والتقى شوقى وإسماعيل صبرى فى لحظات الضعف بسبب مرض الأم .

ثم تفجرت مشاعر شوقى .

لقاء الشعراء ليس لقاء عاديًّا . كمايتخيل بعض الناس ، ولكنه لقاء العبقرية ، ونحن لم نرصد لحظات لقاءشوقى مع البارودى أوصبرى . . وهؤلاء الثلاثة عباقرة .

والأمر العجيب أنهم جميعاً التقوا فى حلوان .

سقيا لحلوان ذى الكروم   وماصنّف من تينه ومن عنبه

وقال آخر :

شمسان لم يخلق الله مثلها
شمس بأسوان والأخرى بحلوان

ومأأشهى لحظات الحب والوجد فى حلوان !

هناك كان الصَّبَى والشباب ولحظات الغياب .

ولك أن تتصور كيف ألتقى أحمد شوقى وإسماعيل صبرى فى حلوان .

وأنا قلت لك منذ البداية : إن الشاعر كان يريد أن يغنى ، ولكنه لم يجد الكلمة ، ولم يجد النغمة فيما سمعه كما رويت لك .

ثم استطاع إسماعيل صبرى تحرير الأغنية من النغمة الساقطة ، وكتب للمغنين أعذب أغنيات مصر :

الحلو لما انعطف
أخجل جميع الغصون
والخد آه . . ما انقطف
ورده بغير العيون

كان فى إحدى لياليه يستمع إلى المطرب محمد عثمان ، فلم تعجبه أغانيه ، وقال بعض جلسائه :

– هل تكتب لنا أغنيات نستغنى بها عن تلك الأغانى المبتذلة ؟

فأجابهم إسماعيل صبرى إلى طلبهم بشرط أن يغنيها محمد عثمان فى تلك الليلة ، ووافق محمد عثمان على شرط الباشا . وكتب إسماعيل باشا صبرى كلماته :

– قدك أمير الأغصان من غير مكابر
وورد خدك سلطان على الأزاهـــــر
والحب كله أشجان يا قلب حاذر
والصد ويا الهجران جُـزا الـمُخَاطـر

ولحن (محمد عثمان) وغنّى تلك الأغنية الشهيرة فى الليلة نفسها .

هذا هو المفتاح للفن الشعرى الجديد .

لقد سأل السلطان حسين كامل سلطان مصر التشريفاتى شيخ العروبة (أحمد زكى باشا) عن الشاعر الذى يخلف إسماعيل صبرى وكان شوقى فى منفاه .

وقال أحمد زكى باشا للسلطان :

– هو بلبل مصر المنفى أحمد شوقى .

وكان شوقى فى منفاه قد ترنم بمصر ، وقال قصيدته المشهورة :

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس؟

ثم أصبحت نغمة شوقى هى نغمة إسماعيل صبرى . . وكلاهما عزف على عيدان حب مصر ، وكل عود له نغم .

كان صبرى باشا من عشاق الآنسة مى زيادة ، وقال فيها شعراً ترجم إلى الفرنسية ضمن مجموعة من الشعر العربى القديم ، وهو يقول لها :

أنت روحانية لاتدّعى أن هذا الحسن من طين وماء

وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملا تكوين سكان السماء

وهو حب روحانى رفيع ، تعلمه منه أحمد شوقى فى غرامياته التى يتحدث عنها المتحدثون .

وكانت كلمة شوقى :

صونى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن روحانى

من أحسن ماقيل فى الشعر العربى .

ولكن شوقى كان يقترب من الحس أكثر من اقترابه فى الشعور مع أنه كان عذرى الحب .

فبدأ بالشعور الرفيع فى قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى مايشبه الأحلام من ذكراك

ثم يعود إليه الحس :

وأبيت فى ليلين شعرك والدجى ولثمت كالصبح المنوّر فاك

ولكن هذا الشعور الحسى غرق فيه الشاعر الأكبر ، سلطان العاشقين عمر بن الفارض ، ونحن نغرق فيه بوعى أو بغير وعى ، ويظل الحب مشتعلاً .

إن قصة عشق إسماعيل صبرى للآنسة مى زيادة مشهورة ، ولكن قصص عشق شوقى كثيرة فقد عشق (فاطمة رشدى) وعشق المطربة (ملك) وعشق (أم كلثوم) وكتب لها قصيدة التحدى التى غنتها بعد وفاته بسنوات ، ولم تغنها فى حياته ، وهى التى يقول فى مطلعها :

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها واستخبروا الراح هل مست ثناياها؟

وكان يريد منها أن تشرب معه كأسا فأبت وغضب ، وغضبت . . ثم انتهت القصة حتى مات .

أما فاطمة رشدى فقد كان يسميها (بطة) وكان يصطبح بوجهها الصبيح ، ويشرب معها القهوة فى الصباح أو فى الضحى ، ويقبل خديها وينصرف .

والمطربة ملك هى التى شهرها شوقى وجعل لها اسماً بين الأسماء ، ولكن كثيرين لايعلمون . وهى موهبة خارقة فى الغناء المسرحى ، وكتب لها شوقى أبدع قصائده الغنائية .

إن الشاعر لايعيش بغير حب .

وقد تعلم شوقى من أستاذه إسماعيل صبرى أعظم قيمة فى الحياة وهى الحب .

إسماعيل صبرى قال أعظم الشعر فى الحب الإلهى .

أنا ياإلهى عندبابك واقف لاأبتغى عنه الزمان عدولا

ماجئت أطلب أجر ماقدمته حاشى لجودك أنيكون قليلا

وشوقى هو شاعر الحب الإلهى فى قصائده الرنانة الذائعة . . ومنها :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

ولو أنك جردت شعر إسماعيل صبرى وشعر أحمد شوقى من مدائح الملوك والحكام ، واستخلصت روح الشاعر لوجدت فيها روحاً واحدة ، تنبع من قلب واحد .

لقد كتب طه حسين وأحمد أمين عن الشاعر إسماعيل صبرى ، ولكنهما – وهما أستاذان – لم يدركا قيمة هذا الشاعر فى صنع الشاعرية المصرية الجديدة .

كان المجتمع المغلق يغلق أبواب الحب ولايعترف بها ، مع أن الشاعر عاشق ، ولايعيش بغير حب . وقد عاش البارودى قصص حب كثيرة ، وعاش إسماعيل صبرى قصة عشق عظيمة للآنسة مى زيادة .

كما عاش شوقى قصص حب لاتحصى ولاتعد .

وتعلم الشعراء من بعدهم كيف يحبون ويعشقون . وكانت قصص (إبراهيم ناجى) شهيرة فى القاهرة – وظل (أحمد رامى) يمثل عاشق أم كلثوم حتى هذه اللحظة ، وهذا العشق هو سبب اشتعال العبقرية .

وماذا تكون الحياة بلاحب ؟

ولكن حب إسماعيل باشا صبرى كان من لونٍ آخرَ عظيمٍ وجليلٍ .

حب ليلة الثلاثاء عند الاجتماع الأسبوعى مع (مى زيادة) التى أحبها أحمد لطفى السيد ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وغيرهم من المشهورين والمغمورين .

وحب الشاعر يخالف هؤلاء جميعاً .

يالواء الحسن أحزاب الهوى   أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء

وهذه هى قصيدة الثلاثاء فى غرام (مى زيادة) . .

قلت لك : إن أعظم ماتعلمه شوقى من أستاذه إسماعيل صبرى هو الحب .

ولكننى حتى هذه اللحظة لم أعرف الحياة الشخصية لشيخ الشعراء ، ولاالحياة

الشخصية لأمير الشعراء فقد أخفيت هذه الصفحة إخفاء تاماً كاملاً . . أوشبه كامل .

كان الحب محرماً . . وعندما استحله هؤلاء الشعراء غلّفوه بالقصائد ، وأصبحت بعضها مثل أوراق السلوفان بلانبض ولاقلب ولاعاطفة !

ولكن الذى يبقى بعد كل هذا الكلام هو أن (إسماعيل باشا صبرى) كان أستاذاً فى الحب . . وكان أستاذاً لأمير الشعراء أحمد شوقى .

٥ – أمير البيان شكيب أرسلان

ينسى مؤرخو الأدب وأساتذته حقيقة هامة فى تاريخ الأدب العربى ، وهى أن هذا الأدب وحدة عضوية كاملة . وقد تمثل هذا فى العصر الحديث حين بايع شعراء العرب (أحمد شوقى) بإمارة الشعر .

امحت الإقليمية ، وزالت الحدود والقيود ، وأصبح شوقى أمير شعراء العرب بغير نزاع ، ولاخلاف .

الدم التركى الكردى الشركسى اليونانى ذاب كله فى عروق شاعر عربى القلب واللسان ، اسمه أحمد شوقى .

باسم هذا الشاعر أنشئ كرسى الأدب المصرى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وتقاسمه اثنان من العمالقة هما أمين الخولى وأحمد أمين ، ولكل واحد منهما منهجه وأسلوبه . ولكنهما جلسا على كرسى واحد فى عام واحد ، ونسى الاثنان أن الكرسى

الذى جلسا عليه معاً كان ملك أحمد شوقى .

ثم بدأت المبارزة الهائلة بين أمين الخولى وأحمد أمين حول الأدب المصرى .

كان أحمد أمين يحقق ويتحقق من عروبة مصر ، ويربطها بمهد العرب فى جزيرة العرب ، وقد كتب دراساته فى كراسات كان يلقيها علينا فى قاعة الدرس ، ولكنه لم ينشرها فى كتاب مع أنه كان يملك المطابع والورق والأحبار فى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) التى تولى رياستها ، وأصدر منها كتبه ومؤلفاته ، كما أصدر مجلة الثقافة .

هناك سبب خفى جعل (أحمد أمين) لاينشر كتابه عن الأدب المصرى ، وهو الذى كان من أشد الكتّاب حرصاً على نشر كلماته ، حتى إنه كان يتوقف خلال إلقائه لدروسه علينا ونحن طلاب علم فى كلية الآداب ، ثم يقول بصوت مسموع :

– هذا الموضوع يصح أن أكتبه مقالاً فى مجلة الثقافة .

لماذا أخفى أحمد أمين محاضراته عن الأدب المصرى التى ألقاها علينا فى كلية الآداب ؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال أحب أن أذكر لك موضوع المحاضرات ، وهى هامة وأساسية وخطيرة فى تاريخ الأدب المعاصر .

* تركزت محاضرات أستاذنا أحمد أمين حول موضوعات أساسية هى :

* علاقة مصر بجزيرة العرب قبل الإسلام .

* دخول العرب مصر بعد الفتح ، وتوزع القبائل العربية فى أقاليم مصر ، وما حدث من اختلاط بين العرب والمصريين .

* استعراب مصر عن طريق اللغة العربية ، وانتشارها ، وتأثرها باللغة المصرية التى كانت سائدة بعد الفتح ، وقد كانت هذه اللغة المصرية خليطاً غير متمازج بين الهيروغليفية والهريطاقية واليونانية ، ولعلها كانت مانسميه باللغة القبطية ، أى

المصرية . لأن كلمة قبطى معناها فى اللغة هو المصرى .

* تاريخ الولادة والحكام لمصر بعد الفتح العربى ، وقد وصل أستاذنا أحمد أمين إلى عصر ابن طولون .

هذه هى محاضرات أستاذ كرسى شوقى فى الجامعة عن الأدب المصرى .

أما أستاذنا الآخر الأكبر أمين الخولى فقد وضع نظريته للآداب ودراستها ، ووضع منهجاً جامعيًّا لدراسة الأدب المصرى ، وكانت خلاصة نظريته ودراسته هى : إقليمية الأدب ، فثارت ضجة ، وكان شيخى أمين الخولى يحب تفجير القنابل ، وإحداث الضجة . وهذه إحدى علامات اليقظة الفكرية ، فلا يقظة بغير ضجيج يبعث الحياة .

ونسى الشيخ الكرسى الذى كان يجلس عليه مع زميله أحمد أمين ، وهو كرسى شوقى .

وأصبحت هناك قضية .

أحمد أمين يقول : إن مصر استعربت ، وأصبحت عربية ، وأدبها عربى .

وأمين الخولى يقول : إن الأدب المصرى أدب مصرى إقليمى يحمل خصائص مصر .

هذه هى قمة الصراع بين العملاقين اللذين جلسا معاً فى عام واحد على كرسى أحمد شوقى . ثم دخل عبد الوهاب عزام فى حياء وأدب ليقول كلمته ، وكان هذا العملاق الثالث من أكابر الأدباء العلماء ، فألف كتاباً سماه (مهد العرب) عن جزيرة العرب .

أنا أحدثك عن خلفيات الفكر الأدبى فى مصر خلال فترة خطيرة من فترات التاريخ العربى ، وكان السبب هو (أحمد شوقى) أمير الشعراء ، وصاحب كرسى الأدب المصرى فى جامعة القاهرة .

وأنت تسألني :

ما العلاقة بين شكيب أرسلان وبين هذه القضايا ؟

وأقول لك : إن (شكيب أرسلان) درزى شامى ، وهو من أمراء جبل الدروز . وهو عربى القلب واللسان ، ومن كبار المدافعين عن العرب والإسلام فى العصر الحديث . ومن أكابر المثقفين العرب الذين تنساهم الأجيال الجديدة .

شكيب أرسلان أمير البيان

وأحمد شوقى أمير الشعراء

والشىء العجيب الغريب هو أن (شكيب أرسلان) لقّب (محمود سامى البارودى) أميراً للشعراء قبل شوقى ، ثم اعترف بعد ذلك بأن (شوقى) هو أمير الشعراء .

كان شكيب أرسلان يعتبر البارودى أمير الشعراء ، واتخذه أستاذاً وإماماً . ولكنه عرف (أحمد شوقى) بعد ذلك ، وبايعه بإمارة الشعر ، واقترح عليه أن يجمع شعره فى ديوان وأن يسميه الشوقيات .

وقبل أن يحمل شوقى لقب إمارة الشعر كان شكيب أرسلان يعرف هذه الحقيقة ، وهو القائل فى رثائه :

هذا أمير الشعر غير مدافع   فى الشرق أجمع مذ فتق لهاته

لوكان وحى بعد وحى محمد   لانشق ذاك الوحى عن آياته

وقد ذكر شوقى بداية صلته بشكيب أرسلان : فقال :

« جمعتنى باريز فى أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان ، وأنا يومئذ فى طلب العلم ، والأمير حفظه الله فى التماس الشفاء ، فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة ، وكنت فى أول عهدى بنظم القصائد الكبيرة . وكان الأمير يقرأ مايرد عليه منها منشوراً فى صحف مصر ، فتمنى أن تكون لى يوماً ما مجموعة ، ثم تمنى على إذا هى

ظهرت أن أسميها « الشوقيات » .

كما عبر شوقى عن صلته بشكيب أرسلان فى شعره ، وقال :

صحبت شكيباً برهة ولم يفز بها ... سواى على أن الصحاب كثير

حرصت عليها آنة ثم آنة ... كما ضن بالماس الكريم خبير

فلما تساقينا الوفاء وتم لى ... وداد على كل الوداد أمير

تفرق جسمى فى البلاد وجسمه ... ولم يتفرق خاطر وضمير !

هذه هى الصداقة الحميمة التى ربطت بين أمير البيان وأمير الشعراء :

ولكن (داود بركات) رئيس تحرير الأهرام قال : إنه هو الذى أطلق لقب أمير الشعراء على شوقى .

ويبدو أن (داود بركات) كان أول من نشر هذا اللقب فى صدر جريدة الأهرام ، وأن (شكيب أرسلان) هو الذى أطلقه ؛ لأنه سبق أن أطلقه على محمود سامى البارودى قبل شوقى .

وقد لخص شكيب رأيه فى شوقى ، ورأى فيه الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين ، والأسلوب الرشيق الرصين ، واللغة العربية الفصحى التى لاتؤتى من جهة ، والمعنى المتناهى فى الدقة ، اللابس من اللفظ أجمل حلة ، والانسجام المطرد من الأول إلى الآخر فى سكب واحد وسبك متوارد .

كان لقاء الأميرين فى باريس بداية انطلاق عبقرى لأحمد شوقى الذى وجد فى شكيب أرسلان مايجده الفنان العظيم حين يلتقى هو وفنان عظيم ، ويدلك على ذلك كلمة الإهداء التى كتبها أحمد شوقى على نسخة ديوانه التى أهداها لصاحبه ، فقد كتب عليها :

« إلى أميرى وأخى شكيب أرسلان »

(٢٧ مارس ١٩٠٠)

وعندما التقيا فى باريس كان شوقى يحمل معه ديوان المتنبى . وارتسمت فى خيال شكيب أرسلان صورة الشاعرين الأعظمين عند العرب : المتنبى وشوقى ، حتى إن شكيب قال فى رثاء شوقى :

ولكم مررت بحاسدين لفضله رغم القلى يروون من أبياته

وهى الصورة التى قالها المتنبى عن نفسه ، حين جعل الدهر بعض رواته .

إن لقاء باريس بين الأميرين هو أخطر لقاء فى حياة شوقى ؛ فقد تعرض أمير الشعراء لحسد الحاسدين . ونقمة الناقمين . وشنوا ضده حربا شعواء ، واتخذت منه بعض المجلات المصرية فيما بعد مادة للإثارة . حتى قيل : إنه كان ينفق الأموال لإسكات بعض الصحفيين والكتاب الذين يهاجمونه .

وقد ذكر الدكتور محمد صبرى السوربونى صاحب كتاب (الشوقيات المجهولة) أنه التقى هو وشوقى فى فرنسا . وطلب منه أن يجلس معه ، ويحدثه عن حياته ؛ ليصدر عنه كتاباً ؛ فقال له شوقى :

– عايز كام ؟

وعند ذلك انقطع الحديث بين الدكتور صبرى وبين شوقى .

ولذلك كان لقاء باريس حدثاً هاماً فى حياة شوقى ، لأنه التقى هو وشكيب وهما فى سن متقاربة . وكان شوقى فى بدايات بلوغه ، فماذا قال له شكيب أرسلان :

– أنت أمير الشعراء .

إن هذا الاعتراف المبكر من كاتب موهوب لشاعر موهوب يصبح شيئاً خطيراً فى تشكيل شخصية الشاعر .

وهناك شىء آخر يجمع بين الأميرين ، وهو الثقافة الفرنسية التى أخذاها معاً من نبع واحد ، ثم أصبحا معاً يملكان ناصية العربية الفصحى ، كما كانا يملكان

ناصية الفرنسية الرفيعة .

وشكيب أرسلان من كبار المترجمين العرب للأدب الفرنسي ، وقد كان من المعجبين بأناتول فرانس ، فترجم كتابه الشهير (أناتول فرانس فى مباذله) كما نقل رواية (شاتوبريان) التى سماها (آخر بنى سراج) إلى العربية فى أسلوب رائع بديع .

وقد ذكرت لك أنه كان من كبار العارفين لأسرار العربية إلى جانب معرفته العميقة للغة الفرنسية ، فكان يترجم من الفرنسية إلى العربية بغير عناء .

وشكيب أرسلان من أبناء المدرسة اللغوية العربية فى العصر الحديث ، فقد أخذ عن أستاذه عبد الله البستانى ؛ كما صحب كبار العلماء من أمثال الأب أنستاسى مارى الكرملى والشيخ عبد القادر المغربى . وكذلك صحب (سعيد الخورى الشرتونى) صاحب قاموس (أقرب الموارد) ، وهو من أهم المعاجم اللغوية الحديثة .

وأنا أحدثك هذا الحديث لأن (شكيب أرسلان) التقى لقاء آخر وشوقى ، كان خطيراً مثل لقاء باريس : فقد تصدى الشيخ إبراهيم اليازجى صاحب مجلة البيان التى كان يصدرها فى القاهرة لرواية شوقى (عذراء الهند) وكتب فصلاً كاملاً فى مجلته تعقب فيه الشاعر فى جمله وألفاظه ، وهلهله ، وقال : إن هذه الجمل والألفاظ لاتجيزها اللغة العربية الفصحى .

كان الشيخ اليازجى يريد إسقاط شوقى .

وإبراهيم اليازجى عالم لغوى مارونى لبنانى ، هاجر إلى مصر ، وأصدر مجلتين هما (البيان) و (الضياء) ، وقد سبقته شهرته إلى القاهرة ، وكان محققاً مدققاً ، له صيت فى علوم اللغة ، فإذا قال : إن (أحمد شوقى) يخطىء فى اللغة ، فإن معنى ذلك سقوط الشاعر .

ثم دخل شكيب أرسلان المعركة ، ورد على اليازجى ، وقال : إن الألفاظ

التى استخدمها شوقى عربية فصيحة ، وأشْهَدَ بأبيات من شعر الجاهليين وغيرهم ، ثم تعرض لكتاب كان أصدره اليازجى تحت عنوان (لغة الجرائد) فنقده ، وفنده ، وأظهر أخطاءه . وقال إن اليازجى متعنت .

وثار اليازجى على الشاب شكيب أرسلان ، وأجابه بلهجة قاسية . ودخل الشيخ رشيد رضا المعركة ، وكان قد أنشأ مجلة (المنار) فى القاهرة .

وكان اليازجى يقول : إن كلمة (دعاية) غير صحيحة ، فرد عليه الشيخ رشيد رضا قائلا : إنها وردت فى كتاب النبى عليه الصلاة والسلام إلى هرقل ملك الروم ، حين قال له : (أدعوك بدعاية الإسلام) ، فألجم اليازجى ولم يستطع الرد .

وعندما سقطت دعاية اليازجى ضد شوقى لم يستطع أحد بعده أن ينال من قدر أمير الشعراء . وكان الأمير شكيب أرسلان أمير البيان هو السبب فى رد السهام عن شاعر العربية الأكبر فى هذا العصر :

كثيرون أرادوا تحطيم شوقى :

طلاب مال ومنافع ، وطلاب شهرة ، وحاقدون حاسدون . . وأنماط كثيرة كثيرة لاحصر لها ، والله أعلم بنواياها .

ولكن خطورة إبراهيم اليازجى كانت شديدة على أمير الشعراء . ولو أنه نجح فى حملته لاستطاع إسقاط شوقى .

الشاعر لايعرف اللغة !

هذه مصيبة لاراد لها . . فماذا يبقى لأمير الشعر العربى بعد هذا ؟

المادة التى يصنع منها فنه الشعرى مجهولة له ، ولايعرفها ، ويخطئ فى استخدامها .

ومن الذى يقول هذا ؟

الشيخ إبراهيم اليازجى علم أعلام اللغة فى عصره ، والذى جعل نفسه رقيباً لغويًّا لكل ماينشر فى الصحافة المصرية ، فيخطئه ويخطئ كاتبه .

ولكن الكاتب الصحفى لايقل مقداره إذا أخطأ فى اللغة ، بل إن بعض الكتاب كانوا يتندرون باليازجى ، ولا يهمهم أن يكونوا مخطئين .

ولكن «شوقى» أمير الشعراء يخطئ فى استخدام اللغة !

لقد تدخل شكيب أرسلان ؛ لأنه أحس بأن هناك مؤامرة تحاك ضد شوقى ، وقد جذبوا لها إبراهيم اليازجى ، ليكون فى كلمته فصل الخطاب .

ولم يتعرض اليازجى لقصائد شوقى حتى لايتلقى صفعة مثل صفعة المتنبى التى وجهها لعالم اللغة فى عصره (ابن جنى) ، فإن الشاعر يملك حرية استخدام اللغة مادام يملكها .

وقال المتنبى فى صلفه وغروره !

وما الدهر إلا من رواة قصائدى !

وقال شكيب أرسلان : إن (شوقى) مثل المتنبى يروى الدهر قصائده ، والحاسدون الناقمون يروون من أبيات أمير الشعراء !

كان المتنبى يحطم بكلماته قواعد النحو المتعارف عليها بين النحاة ؛ لأنه كان يعرف من أسرار العربية أكثر مما يعرفه النحاة ، وهو الذى كان يملك اللغة ولاتملكه اللغة .

اللغة ليست هى الكتاب . . ولكنها حياة .

ذات يوم كتب الدكتور (زكى مبارك) مقالاً فى جريدة البلاغ عن هذا الموضوع ، وأورد فى مقاله بيتاً من الشعر الجاهلى قال قائله :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

فصحح له المصحح بيت الشعر بما يعرفه من قواعد النحو ، وجعله :

إن أباهـا وأبـا أبيها قد بلغا فى المجد غاياتها

ولم ينم زكى مبارك ليلته حتى طلع الصباح ؛ لأن المصحح ضيع عليه ما أراد أن يقوله من أن قواعد النحو التى وضعها (الخليل بن أحمد) لاتنطبق على أساليب شعراء العرب انطباقاً كاملاً .

وعندما أهل الصباح جاء الدكتور زكى مبارك إلى جريدة البلاغ ، وبحث عن المصحح وضربه بعصاه !

وزكى مبارك واحد من عشاق شوقى .

أما شكيب أرسلان فقد كان من أكابر العارفين بقدر أمير الشعراء منذ التقيا فى باريس على عهد الصبا والشباب ، وقد ألف أمير البيان كتابه الشهير عن : «شوقى . . صداقة أربعين عاماً»

وإذا كان شكيب أرسلان قد نصب (شوقى) أميراً للشعراء على مائدة مقهى فى باريس قبل أن يبايعه شعراء العرب بالإمارة – فإن هذا الحادث ليس هو الأهم فى شخصية شكيب أرسلان وعلاقتها بشوقى ؛ لأن أهم حادث هو تصدى أرسلان للحجة اللغوى إبراهيم اليازجى عندما أراد تحطيم شوقى ، واستعانة أرسلان بالشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار وصديق شكيب أرسلان ، وتلميذ محمد عبده .. وكلاهما تلميذ للأستاذ الإمام .

هذه قضية خطيرة فى حياة شوقى أمير الشعراء .

لم يكن فى استطاعة شوقى الرد على إبراهيم اليازجى ، ولم يكن فى مصر أحد يتقدم لمنازلة اليازجى ، بل إن معظم المجلات كانت تهاجم أمير الشعراء ، وتطرب لهجوم اليازجى عليه .

وكانت هذه الحادثة هى التى كونت عند شوقى عقدة الصحافة ، حتى إنه صادق رؤساء تحرير الصحف ، وكان يمر على مكاتبهم كل ليلة قبل عودته إلى

داره . بل إنه هو الذى منح السيدة روز اليوسف مكاناً فى أملاكه ؛ لتجعله مقراً لجريدتها .

كان شوقى صديقاً لجبرائيل تقلا صاحب الأهرام ، وعندما مات رثاه بقصيدة من عيون شعره ، وقال فيها قوله السائر كالأمثال :

مات رجل والرجال قليل

وكان صديقاً لداود بركات رئيس تحرير الأهرام ، وناشر قصائد شوقى فى الصفحة الأولى للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ الصحافة المصرية .

وكان صديقاً لتوفيق دياب صاحب جريدة الجهاد الذى أمضى معه سهرته الأخيرة ، قبل عودته إلى كرمة ابن هانئ ليلتقى لحظة اللقاء مع الموت .

ولكن لقاء أحمد شوقى مع شكيب أرسلان كان لقاء أميرين .

حتى فى إهداء الشوقيات الأولى إلى شكيب أرسلان ، قال له شوقى كلمة : أميرى .

وكان شكيب يقول لشوقى أيضا : أميرى

هذا هو أدب الأدب .

وسنظل سنوات طويلة نبحث عن أمير بيان ، أو عن أمير شعراء ولكن ...

هل الأدب الرفيع سليل بيئة رفيعة ؟

شكيب أرسلان أمير عربى صميم من سلالة الملك النعمان بن المنذر الذى كان يمدحه الشاعر العربى النابغة الذبيانى ، وكان شكيب، شديد الاهتمام بأنسابه وأحسابه ، وقد سجلها ، وحققها ونشرها على الناس . وكان خلال رحلته الطويلة العريضة يحمل لقب الأمير الذى منحه لنفسه عن طريق النسب الشامخ ، كما كان جداده وآباؤه يحملونه من قبل ، وهو لقب موروث وغير ممنوح ، ووالده هو الأمير

حمود أرسلان . ومازالت الإمارة فى بيتهم حتى الآن فى بلدة الشويفات فى لبنان .

أما أحمد شوقى المختلط الدم فقد نال لقب الإمارة من السلطان عبد الحميد سلطان آل عثمان . عندما منحه لقب (أفندى) العثمانى ، فلم يستطع خديوى مصر عباس حلمى منحه لقب الباشوية ، لأن لقب (أفندى) كان أعلى من لقب (باشا) عند سلاطين آل عثمان وولاتهم ، ومنهم خديوى مصر عباس حلمى .

وكان شوقى قد ولد فى العز والرفاهية والترف بباب إسماعيل خديوى مصر . وأصبح ربيب البيت الخديوى ، وجدته اليونانية (تمراز) من وصيفات القصر .

ثم أصبحت القضية عربية عبقرية .

عملاقان يتلاقيان ، أمير شعراء وأمير بيان ، وتجمع بينهما لغة القرآن .

قال لى واحد من الصحفيين الذين عرفوا (أحمد شوقى) ، ولازموه : إنه كان لايشرب الخمر فى رمضان . وقد كان فى الإسكندرية بصطاف ودخل رمضان ، وكان شوقى صائماً . وجاءه بعض مستأجرى أملاكه وأراضيه يسددون الحساب . فجلسوا معه فى بعض المحال العامة ، وكانوا مفطرين ، فشرب بعضهم القهوة ، وشرب بعضهم الخمر ، فامتعض شوقى ، ولكنه سكت على عادته فى الأدب ، ولم يمنع عنهم ما يطلبون حتى انتهى شهر رمضان ، وجلس شوقى فى مكانه المفضل ، وقال قصيدته الذائعة التى كتب فيها البيت :

رمضان ولّى هاتها ياساقى   مشتاقة تسعى إلى مشتاق !

كان احترام شوقى للإسلام عظيماً ، حتى أصبح شاعر الإسلام ، والهفوات والسقطات لاتسقط كلمة إيمان راسخ . وطلب المغفرة أحسن من ذكر الذنوب . وقد طلب المغفرة على ذنوبه .

البشر لايملكون المغفرة لخطايا البشر ، ولكن الذى يملكها هو الواحد الأحد . ولنا حساب وعقاب ، وقد طلب شوقى من ربه المغفرة ، واعترف بالذنب .

وهل جل ذنب شوقى عن الغفران ؟

إنه شاعر الإسلام وصدى لصوت القرآن .

وكل هذا الحديث سببه شكيب أرسلان الذى أثار القضية .. إمارة الشعر .. وإمارة البيان .

أردت أن أحدثك عن الأدب عندما يصبح مثل الماس ، أو اللؤلؤ المنضود ، أو قلادة حسناء مثل عنقود .

إن أرفع الأدب وأمتعه هو أدب القادرين لا أدب العاجزين . وقد تستمتع بأدب الرعاع برهة ، ولكن أدب العارفين لأصول الأدب تستمع به كل برهة .

وليس فى الأدب برجوازية ، ولا سوقية ؛ لأنه الفن الأرفع ، يعطيه من يقدر فيمتع .

والأدب ليس هو الأمير ، وليس هو السوقى الحقير ، ولكنه أمير فوق كل أمير .

كان أحمد شوقى أميراً بهذه الصفة ، ولذلك كان أمير الشعراء .

وكان شكيب أرسلان أميراً بالميراث ، فنسى إمارة الميراث واكتسب لنفسه إمارة البيان ، وأحب هذا اللقب الجديد الذى التصق باسمه .

والقضية فى جوهرها هى قضية الإمارة للأدب ، لاقضية الإمارة بالنسب ، وقد استطاع أمير البيان شكيب أرسلان ، وأمير الشعراء أحمد شوقى ، وضع الخطوط الأساسية لها فى مفهوم الفن .

وخلال فترات الصراع السياسى استطاع الأميران وضع أساس التفكير الفنى ، وكان المفهوم الأول هو : الفن للحياة ، وليس للملك أو السلطان ، وهو ليس للانزلاق إلى مهاوى الأيديولوجيات القديمة أو الجديدة .

الفن للحياة .

هذه هى الفكرة الأساسية للفنان الحى القادر على بعث الحياة ، أو صنع

الحياة ، ولذلك أصبح شوقى هو شاعر الشعب مع أنه كان شاعر الأمير أو الملك . وهذه إحدى المفارقات فى فهم الفن .

كيف يصبح شاعر الأمير هو نفسه شاعر الشعب ؟

إن الفن أعلى قدراً ، وأعظم أثراً ، وأقدر اقتداراً من كل سلطة . ولكن الفن ليس هو السوقية على كل حال ؛ لأنه أرفع من السوقية ، وأشد علواً من كل سلطة عالية .

وعندما التقى أمير البيان وأمير الشعراء حدث لقاء الفن لإمارة الفن . وكان تأثير شكيب أرسلان فى شخصية شوقى هو تأثير إمارة الفن .

كان كتاب شكيب أرسلان :

شوقى أو صداقة أربعين سنة – قصة الدفاع عن إمارة الفن والأدب والشعر .

كان شكيب فى دفاعه عن مدائح شوقى للملوك دفاعاً عن نفسه ، لا عن شوقى ، وقد تحدث عن عفة الشاعر الذى يمدح الملك وهو الملك .

وأعظم رؤية فى هذا الكتاب الفريد هى المقارنة بين المتنبى وشوقى .. وكأنه أراد أن يقول : إن (أحمد شوقى) هو متنبى عصرنا .

الوفاء والحب والإعظام لأمير الشعر هى كلمة شكيب أرسلان ، وهى نغمته الدائمة .

أليس هو الذى نصبه أميراً للشعراء قبل أن ينطق أحد بهذه الكلمة ؟

ومع ذلك خلع طه حسين إمارة الشعر من فوق كتفى شوقى ، وحاول أن يضعها على كتفى العقاد !

ثم عجز طه حسين .. وعجز عباس محمود العقاد ، وظل شوقى أميراً للشعراء !

٦ - شاعر النيل حافظ إبراهيم

لم تشهد القاهرة شاعراً أظرف من حافظ إبراهيم ؛ فقد كان يتنقل مثل النسيم ، ومعه الشاعر الصعلوك (إمام العبد) من قهوة إلى قهوة ، ومن حانة إلى حانة ، ليحكى الحكايات ويروى الروايات ويقول النكت اللاذعة البارعة .

وقد نسى الناس الشاعر (إمام العبد) . لأنه مسكين .. ومن يسأل عن المساكين ؟

سبق فى بؤسه وشقائه الشاعر (عبد الحميد الديب) وقد تعلم الظرف وخفة الدم من أستاذه البائس الأكبر حافظ إبراهيم . ولكن شاعر النيل كان مثل الجمل يحتمل ، ولايشكو . ويضحك فى أحلك لحظات الظلام والإظلام والظلم .

كان حافظ إبراهيم قوة من القوى المحركة للمجتمع المصرى ، بل للمجتمع العربى كله برغم كل ظروفه ، ومعاناته ، وبأسائه ؛ وكانت قدرته على مواجهة

الظروف خارقة للعادة .

يملك كل شيء وهو لايملك شيئاً !

الذى يملك الكلمة يستطيع أن يملك الدنيا ولم يكن فى جيبه مليم واحد أحمر ! وحافظ واحد من القلة القليلة التى امتلكت الكلمة .

هو الذى صاح فى وجه إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزارة الطاغية بقصيدته الذائعة :

قد مر عام ياسعاد وعام وابن الكنانة فى حماه يضام !

فهز السلطة بالكلمة الشاعرة . وجعل (إسماعيل صدقى) يتقلى على الجمر . وظل حافظ إبراهيم شاعر النيل هو الشخصية القادرة على الضحك والسخرية . حتى لو فقد رزقه القليل وهو الذى ينفق ما يكسب على الشعراء المغمورين من البائسين !

إن شخصية حافظ إبراهيم من الشخصيات النادرة فى تاريخ الأدب المصرى ؛ لأنه يمثل التحدى فى وجه كل شىء إلا وجه الواحد الأحد الفرد الصمد . وكانت تحديات حافظ إبراهيم أعظم مما يتحمله المجتمع المصرى فى عصره ؛ فقد كان الضابط الشاعر الشاب تلميذ محمد عبده هو المتحدى للاستعمار البريطانى فى السودان عندما كان ضابطاً صغيراً ناشئاً ، ثم عاد إلى مصر مطروداً من الجيش ، ليلتقى هو وأمير الثوار محمود سامى البارودى . وكان اللقاء مثيراً عاصفاً بعد عودة البارودى الفارس الشاعر من المنفى وقد من عليه خديو مصر عباس حلمى براتب شهرى يرسله إليه أول كل شهر فى ظرف مغلق يضم أربعين جنيهاً ،

وفى أول لقاء بين البارودى وحافظ قدم الفارس محمود سامى البارودى باشا ظرف معاشه لحافظ إبراهيم ، ليعيش البارودى باشا شهراً كاملاً بلا قرش واحد من أجل أن يعيش حافظ إبراهيم حياته الصاخبة فى يوم واحد ، أو لحظة واحدة !

عاش حافظ إبراهيم حياته بالطول والعرض . وملأ الدنيا بالضحكات والبسمات ، وسط جو قاتم مملوء بالفزع والضياع ، ووقف بقامته الفارعة يتحدى الزمن وهو الذى أغلقت فى وجهه أبواب الرزق ، وفتحت أبواب العبقرية .

كان شوقى فى قمة الثروة والرخاء والرفاهية على حين كان حافظ فى قاع الفقر والحاجة والبؤس حتى بعد أن منح رتبة البكوية وعين وكيلا لدار الكتب !

وظل البؤس ملازماً لحافظ حتى بعد موته ؛ فقد دفن فى مقبرة مجهولة منفردة فى عرض الطريق ؛ حتى أنقذ محمود باشا صدقى محافظ القاهرة فى عهد الملك فؤاد رفات شاعر النيل ، وأنشأ له مقبرة لائقة فى قرافة السيدة نفيسة الجديدة بالقاهرة ، ولكن أحداً من الشعراء والأدباء لم يعرف مكان هذه المقبرة الجديدة التى توشك أن تنهدم بسبب الإهمال ، ولأن أحداً لايزورها فى المواسم والأعياد على عادة المصريين ، وليس لها حارس يحرسها من الضياع !

وعندما أقامت وزارة الثقافة أمسية شعرية لحافظ إبراهيم لم تفكر فى وضع إكليل من الزهور على مقبرة الشاعر ؛ لأنها لاتعرف مكانها . ولاتسأل الذين يعرفون !. وأعتقد أننا يجب أن نضع تقاليد لتكريم العباقرة فى بلادنا .

لقد كان أول حفل جامعة (مارتن لوثر) فى مدينة (هالة) الألمانية الشرقية ، عندما احتفلت بذكرى مرور مائة عام على مولد المستشرق الكبير (كارل بروكلمان) هو أنها أخذتنا إلى مقبرة العالم الكبير ، الذى أحاطت به باقات الزهور .

إن مقبرة حافظ إبراهيم فى قرافة السيدة نفيسة الجديدة هى أول مقبرة أقامتها الدولة لتكريم عبقرى فذ من عباقرة مصر .

وعندما مات طه حسين لم يجدوا له قبراً يدفن فيه ، وقد سارع المهندس عثمان أحمد عثمان إلى إنشاء مقبرة فى البساتين على مقربة من الإمام الشافعى ، لعميد الأدب العربى . كما أقامت الدولة مقبرة لعباس محمود العقاد فى أسوان .

أريد أن أقول لك إن مقابر العظماء هى متاحف الحضارة ، وقد شاهدت مقبرة (جوته وشيللر) فى مدينة فايمار الألمانية الشرقية ، وهى مقبرة عريقة قديمة ، تنفق على نفسها من بيع تذكارات وكتب وصور الشاعرين ليعرّفوا الناس معنى الحياة والخلود فى الأدب .

لست أدرى لماذا دفعنى حافظ إبراهيم إلى هذا الحديث ؟

البؤس . . . .

وكم ذا بمصر من المضحكات : كما قال فيها أبو الطيب !

هذه كلمة حافظ إبراهيم مترجم رواية البؤساء لشاعر فرنسا فيكتور هوجو .

ولماذا ترجم حافظ رواية البؤساء بالذات ؟

شاعر النيل الذى ملأ الدنيا بالضحكات كان بائساً ، وكان تابعه الدائم هو الشاعر البائس إمام العبد ، وهو شاعر أسود الوجه ، كان حافظ يتندر بسواده فى الليالى السوداء .

ذات يوم جاءه إمام العبد ، وكان الصيف قائظاً شديد الحرارة ولم يضع العبد رباط عنق حول قميصه ، فظهرت رقبته السوداء ، وبادره حافظ قائلاً

– أنت لابس كرافتة سودة ليه ياإمام مين مات لك ؟

وعندما ذهبا إلى الإسكندرية معاً نزل إمام العبد ليستحم فى البحر ، ثم خرج من الماء ، متجهاً إلى أستاذه حافظ إبراهيم الذى صاح ضاحكاً

– سودانى ومملح !

وكان إمام العبد من الشعراء الظرفاء . ولكن شعره ضاع وسط زحمة العباقرة فى عصره ، بل إن اسمه اختفى من تاريخ الأدب المصرى الحديث ، ولم يعد أحد يذكره

وبرغم كل الظروف استطاع حافظ إبراهيم بعبقريته الفذة أن يسير مع أحمد

شوقى على درب واحد . واشتهر فى الأدب العربى الحديث شاعران متلازمان حافظ وشوقى .

وكان حافظ يقول فى مجالسه :

– إن اسم حافظ وشوقى أصبح مثل نداء الباعة .. سميطْ وبيضْ ! واستمر هذا خمسين عاماً .

كان لقاء القمة مع لقاء القاع ، وهذه إحدى عجائب مصر : فقد حدث لقاء مشابه فى الشعر الألمانى ، عندما التقى (يوهان ولفجانج جوته) و (فردريش شيللر) ولكنه كان لقاء قمة : فإن الوزير جوته عندما أقام بيته العريق الأنيق فى مدينة (فايمار) ، أصر على بناء بيت مثله ، وعلى مقربة منه للشاعر المتمرد (شيللر) ، وكان (جوته) يتحمل كل هجمات وطعنات (شيللر) تلميذه وزميله ، من أجل عيون الشعر العبقرى . وعندما أقيم مسرح (فايمار) وضع أمامه فى الميدان تمثالٌ واحد للشاعرين المتعانقين فى ظل ربة الشعر والجمال ، كما دُفنا معاً فى مقبرة واحدة كما قلت لك .

ولكن الموقف مع شوقى وحافظ كان مختلفاً أشد الاختلاف : فقد ظل شوقى فى القمة ، وظل حافظ فى القاع ، برغم الاعتراف الكامل بالعبقريتين ، حتى من طه حسين ، صاحب كتاب (حافظ وشوقى) الذى شطح فيه ونطح ! ولم يكن منصفاً للعبقرية الشعرية التى قلما يجود بها الزمان .. وقد ظهر فى عصر شوقى وحافظ كوكبة من الشعراء قسّمهم (مصطفى صادق الرافعى) إلى عشر طبقات ، فى إحدى مقالاته التى نشرها فى مجلة (المقتطف) وجعل أحمد شوقى من الطبقة العاشرة بين شعراء العصر . وهذا يدل على أن شوقى كان يغيظ كل الشعراء حتى وضعه الرافعى فى ذيل قائمته العجيبة الغريبة ، ولكن الرافعى خاف فى توقيع مقاله . ووقع بإمضاء مستعار .

ولكن هذه الصور المهزوزة لم تستطع أن تهز قيمة شوقى وحافظ ، وظلا معاً مثل (السميط والبيض !) كما قال حافظ إبراهيم .

نحن لانعلم كيف ومتى بدأ الاتصال بين حافظ وشوقى ، لأن تاريخ الأدب المصرى لم يسجله أحد تسجيلاً علميًّا ، ونحن نحاول الوصول إلى خيوطه الضائعة وسط الظلام .. وكلمة من هنا وكلمة من هناك .

عندما أعلنت الحماية على مصر عام ١٩١٤ ، وعزل الخديو عباس حلمى ، وولى الإنجليز السلطان (حسين كامل) سلطاناً على مصر قال شوقى قصيدته الخطيرة :

الله يشهد ما كفرت صنيعه — فى ذا المقام ولا جحدت جميلا
والله يعلم أن قلبى موجع — وجعاً كداء الثاكلات دخيلا
مِمَّا أصاب الناس فى أبنائهم — ووهى الهلال ممالكاً وقبيلا
أأخون إسماعيل فى أبنائه — ولقد ولدت بباب إسماعيلا ؟

وقال شوقى فى هذه القصيدة :

وانفض ملعبه وشاهده على — أن الرواية لم تتم فصولا

فضحك حافظ ، عندما سمع القصيدة وقال :

– هذه مقالة ، وليست قصيدة !

وفعلاً كانت هذه القصيدة مقالة سياسية خطيرة ، وهى من الشعر السهل الممتنع . وقد نُفِى شوقى من مصر ، ورحل إلى الأندلس بسبب هذه القصيدة .

ولكن (شوقى وحافظ) تعارفا قبل ذلك بسنوات ، فقد كتب شوقى مقطوعة فى تقريظ ديوان حافظ عند صدوره . وقال فيها :

ياحافظ الآداب والبطل الذى — يرجى ليوم فى البلاد عصيب

ولكن الصراع بين الشاعرين كان عظيماً .

قال شوقى فى إحدى قصائده التى مدح بها مولاه الخديو عباس حلمى :

مولاى عبدك طائع فافعل به ما أنت فاعل

وقيل لحافظ :

– أى بيت من الشعر تفتخر به ؟ فقال :

ويايدُ ما كلَّفتُك البسطَ مرة لذى منة ، أولى الجميل وأنعما !

ثم اشتهر حافظ إبراهيم فى مصر بعد حادثة دنشواى بأنه شاعر الوطنية ومشهر دنشواى فى البرية . وكان شوقى فى أعماق نفسه شديد الإعجاب بحافظ وشعره الوطنى ، ولكن لم يستطع خلال فترة التصاق اسمه بأمير البلاد أن يعلن ذلك صراحة .

ومن الحوادث الطريفة أن المعتمد البريطانى فى مصر (السير ألدن جورست) سافر إلى السودان فى يناير ١٩٠٨ ، وكان قد تولى بعد عزل لورد كرومر سفاح دنشواى ، ونشرت الصحف أن جورست اصطاد سمكة وزنها ٥٢ رطلاً ، ثم جذبها إلى البر بعد جهاد دام ساعتين إلا ربع الساعة ، فكتب حافظ مقطوعة ، تحت عنوان (شهيدة الخرطوم) ونشرها فى جريدة الظاهر يوم ٤ من يناير ١٩٠٨ ، قال فيها :

قال الحمام معزياً فى النيل أنواع السمك

عام البنادق قد مضى : ولقد أتى عام الشبك !

فالسعد لى ، والفرح لى : والأمن لى ، والويل لك !

وفى ٣١ يناير ١٩٠٨ نشرت (الجريدة الأسبوعية) مقطوعة لشوقى ، قال فيها :

غورست رب السمكه ، ذاك بشير البركه

سحبتها بالرفق فهى أمةٌ ممتلكه

إن كنت قد خطفتها ، ولم تزل فى حركه

ابعث لسليمان ومطران بها مشتركه

فإنها مصلحة للمعد المرتبكه

كلاهما معدته تأخذ شكل الشبكه

وهناك معارضات كثيرة بين شوقى وحافظ . ولكن المشكلة التى تواجهنا هى أن شوقى لم ينشر نشراً علمياً بحيث تعرف تواريخ قصائده ومناسباتها . ولكن شعر حافظ نشر نشراً علميًّا ، مع أن الديوانين غير كاملين ، وهناك قصائد ومقطوعات كثيرة ضاعت منهما ، ولم تنشر .

عندما كان شوقى فى المنفى لم يغب عن خاطره حافظ إبراهيم : ففى عام ١٩١٧ عرض داود بركات رئيس تحرير الأهرام على حافظ إبراهيم ثلاثة أبيات وردت باسمه فى كتاب من أمير الشعراء أحمد شوقى إلى جريدة الأهرام ، وكان عنوان أبيات شوقى : (من الغائب إلى المقيم) وهو يقول فيها :

ياساكنى مصر إنا لانزال على عهد الوفاء – وإن غبنا – مقيمينا

هلاّ بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبل به أحشاء صادينا !

كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلاّ عن أمانينا !

وكتب حافظ رداً على رسالة شوقى ، تحت عنوان : (من المقيم إلى الغائب) وقال فيها :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صادٍ ويسقى رُبَا مصرٍ ويسقينا

والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعده من عيشكم لينا

لم تنأ عنه – وإن فارقت شاطئه وقد نأينا – وإن كنا مقيمينا

وأنت ترى فى هاتين المقطوعتين : كيف تلاقت روحا الشاعرين فى أعظم لقاء عاطفى دافئ ، من النادر أن تجده فى الشعر العربى ؟

وكان العبقريان يعرف كل واحد منهما قيمة صاحبه . وعندما كان شوقى فى قمة الغنى والثراء وحافظ فى قاع الفقر والحاجة لم نسمع أن حافظاً احتاج لمساعدة شوقى ، أو أن شوقى حاول مساعدة حافظ .

كان الشاعر الأكبر الفارس محمود سامى البارودى يقول :

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة   على يدا أغضى لها حين يغضب

وكان الشاعر الفارس الآخر حافظ إبراهيم يقول :

ويايد ماكلفتك البسطَ مرة   لذى منة ، أولى الجميل وأنعما !

كلاهما يدور حول معنى واحد . ولكن بيت البارودى أبلغ وأعظم من بيت حافظ .

وكان سعد زغلول يتمثل بهذا البيت من شعر البارودى فى خطبه الرنانة ، ويعيده ويستعيده وينغمه ، فيلهب أحاسيس الجماهير .

ولكن .. ما أثر حافظ إبراهيم فى حياة شوقى الشعرية ؟ إن المنافسة تخلق أجواء العبقرية . وكانت المنافسة بين الشاعرين ممتدة حتى وفاة حافظ الذى رثاه شوقى برائعة من روائعه يقول فى مطلعها :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى   يامنصف الموتى من الأحياء

وهذا هو الاعتراف الشعرى بالعبقرية الواحدة التى لاتتجزأ . فإن شوقى لم تكن من أمنياته أن يرثيه شاعر آخر غير حافظ إبراهيم . وكان فى مصر وفى بلاد العرب عشرات الشعراء على مختلف المستويات والطبقات فى الشعر .

عندما تلقى شوقى نبأ وفاة حافظ كان يصطاف فى الإسكندرية وكان يختار الجلوس بالقهوة التجارية ؛ ليستوحى الأمواج . فقرأ فى جريدة البلاغ أن حافظا مات ، فغام وجهه ، وأنشأ أعظم قصيدة قالها فى الرثاء

وددت لو أنى فداك من الردى   والكاذبون المرجفون فدائى

الناطقون عن الضغينة والهوى الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام ويبنى مجده بكرائم الأنقاض والأشلاء.
ما حطّموك وإنما بك حطموا من ذا . يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ فى الشرق واسمك أرفع الأسماء

كان لقاء شوقى بحافظ أعظم لقاء للشعر العربى فى العصر الحديث .

وفى سنة ١٩٢٧ ، أقيمت حفلة فى دار الأوبرا لتكريم شوقى ، والمناداة به أميراً للشعراء بصفة رسمية ، وحضر الحفلة وفود من شعراء البلاد العربية .

وعندما وقف حافظ ليلقى قصيدته قال فى مطلعها :

أمير القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وثب شوقى من مقعده ، وقبّل حافظاً على خديه .

كانت هناك فوارق بين حياة شوقى وحياة حافظ ، وهى شديدة الشبه بالفوارق بين جوته وشيللر . فقد كان جوته وشوقى من الأغنياء وكان شيللر وحافظ من الفقراء . ولكن آلهة العبقرية لاتعرف الغنى والفقر . وقد عرف عن شوقى أنه كان يستحم بالكولونيا ، ولايستحم بالماء على حين كان يحلو لحافظ أن يعيش حياة أبناء البلد ، فيرتدى الجلابية والمعطف فى غالب الأحيان ، ولا يرتدى البذلة إلا فى المناسبات ، وكان يتنقل فى القاهرة على عربات الترام بالدرجة الثانية ، عندما كان أجر الركوب ستة مليمات . وقد روى هو بنفسه ما حدث له عندما داس بقدمه على قدم أحد الركاب ، وكان ذلك فى شهر أغسطس ، فقال له الراكب :

— حاسب ! (إنت مش عارف أنا مين) ؟

فرد عليه حافظ ضاحكاً :

— عارف .. راكبْ فى الترام بالدرجة الثانية فى شهر أغسطس .. تبقى مين ؟

وكانت لحافظ حوادث كثيرة تبين لنا طريقته فى الحياة ، ومزاجه وهو مغاير

لشوقى فى كل شىء .

لم تكن لشوقى شلة من الأصدقاء ؛ ولكنه كان يستقبل ضيوفه فى قصره استقبالات شبه رسمية : فى حفلات شاى ، أوأمسيات كوكتيل ، أوعشاء ، كما كان يستقبل بعض الأدباء والصحفيين فى مكتبه . أو يجلس مع بعض أصدقائه فى المحال الراقية . وكان قليل الكلام . سارحاً فى ملكوت الله .

أما حافظ فقد كانت له أكثر من شلة . وكان صاحب أحاديث باهرة ، ونكت رائعة رويت عنه ، ولكنها لم تسجل . وكان يشاركه فى النكت والتنكيت الشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد البابلى . وكان ثلاثتهم فى جيلهم فرسان الفكاهة .

الأدباء يعرفون عبد العزيز البشرى ، واسمه رنان عند قراء العربية ، ولكن محمد البابلى .. قليلون يعرفونه ، وهو ابن عبده بك البابلى الذى كان جواهرجى العائلة الخديوية فى عصر الخديو إسماعيل . وقد تخرج محمد البابلى فى مدرسة البوليس ، واشتغل ضابط شرطة لمدة قصيرة ، ثم عاش للأدب والفن حتى أفنى ثروته الطائلة .

كان الثلاثة الظرفاء يسكنون حلوان حين كانت مجمع الأغنياء والأعيان والأدباء .

هذا هو الجو الذى كان يعيش فيه حافظ إبراهيم .. جو المرح والفكاهة والنكتة – على خلاف شوقى الذى كان يعيش حياة القصور ، وله نظام فى حياته ، وصفه الدكتور زكى مبارك ، وكان قريباً منه فقال :

كان مدمناً على التدخين ، وكان يضع السيجارة فى مبسم من الكهرمان ، وما رأيته بدون سيجارة ، وكان يشرب الشاى من وقت إلى وقت ، وكان مغرماً بأكل البيض . كان يأكله نيئاً عند نظم الشعر .

ولم يكن شوقى يستحم بالماء كما يستحم الناس ، وإنما يستحم بالكولونيا .

وكانت خادمته هى زوجته وتقدر مواعيده الغالية . ولم يكن شوقى يفطر فى البيت ، وإنما يمضى مع الشروق . فيفطر فى مطعم صولت بشارع بولاق واسمه اليوم شارع فؤاد .

وكان مفتوناً بشرب الويسكى ، ولم يكن يشربه إلا بعد منتصف الليل فى البيت .

وكان من عادة شوقى أن يتناول عشاءه فى مطعم من المطاعم الفاخرة فى القاهرة .

أما حافظ إبراهيم فقد كان بوهيمياً منطلقاً . فلا بيت ولا زوجة ولا أولاد ! ولا علاقات عائلية وليس له نظام فى حياته إلا مع أصدقائه . وأشهرهم . محمد البابلى ومحمد المويلحى وعبد العزيز البشرى وصادق رستم وبيرم التونسى وعبد الله سليمان أباظة . والشىء الذى يسترعى النظر هو أن بيرم التونسى كان من شلة حافظ إبراهيم ، فإن أحداً من دارسى أدب بيرم لم يعرف هذه الحقيقة . وقد عثرت على مقطوعة لحافظ لم تنشر ، يقول فيها عندما رثى عبد الله أباظة :

كن على عهد الصبا سبعة ... بمستطاب اللهو نستأثر
البابلى صفوة فتياننا ... وابن المويلحى الكاتب الأشهر
وصادق خير بنى سيد ... وبيرم إذ عوده أخضر
وكان عبد الله أنساً لنا ... وأنس عبد الله لاينكر
فكم لنا فى مجلس طيب ... يشتاقه هارون أو جعفر !
نلعب باللفظ كما نشتهى ... ونضمر المعنى فما يظهر
ونرسل النكتة محبوكة ... من غيرنا فى الحسن لاتصدر !

إن النقاد المدرسيين لايستطيعون فهم تأثير حافظ فى شوقى ، وقد أكد تعاقب السنين والأيام أن الشاعرين (حافظ وشوقى) ، وصلا إلى الخلود الأدبى برغم كل

ما كتب عنهما من انتقاد ، لانقد .

إن ربة الشعر الملهمة لاتعترف بآراء طه حسين والعقاد والمازنى فى شعر شوقى حين هاجموه ، ولا رأيهم فى شعر حافظ حين جاملوه ؛ لأن الفن فوق الهجوم والمجاملة .

فأقول لك الحق :

كان حافظ إبراهيم شاعر النيل من العوامل المؤثرة فى تفجير شاعرية شوقى ، بل إنه كان من أخطر العوامل . ولا تجوز لنا المقارنة التافهة حول الصور الشعرية . والتركيبات اللفظية بين شاعرين من العباقرة ، وليس لنا أن نتلمس السقطات والهفوات عندما ندخل المحراب الأقدس الذى تنطلق فيه الكلمة :

ألم يقل شوقى فى رثاء حافظ :

ما حطموك ، وإنما بك حطموا   من ذا يحطم رفرف الجوزاء ؟
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ   فى الشرق واسمك أرفع الأسماء !

كان هذا هو لقاء العبقرية بين أمير الشعراء ، وبين شاعر النيل ، وسيظل هذا اللقاء دائماً عبر الأجيال .

٧ – الدكتور محمد حسين هيكل

من رأى الدكتور طه حسين أن (هيكل) عندما قدم ديوان البارودى ، وديوان الشوقيات كان من المعجبين بهذين الشاعرين ، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينشئ أدباً كالذى ينشئه هذا أو ذاك .

لماذا ؟

لأن (هيكل) – كما يرى طه حسين – كان يعيش فى عصره ، وكان البارودى وشوقى يعيشان فى عصور مضت . فى عصر المتنبى وأبى تمام وأبى نواس ومسلم بن الوليد ، وربما عاش البارودى فى العصر الجاهلى أو فى العصر الإسلامى .

ويكمل طه حسين تصوره ، فيقول : إن (هيكل) كان يعيش بيننا . ويعيش فى هذه الأحداث الخطيرة التى عشناها واصطلينا بنارها .

هذا الزعم من طه حسين ليس صواباً ، بل إنه يتجنى على البارودى وشوقى

معاً، فقد عاشا مثله هذه الأحداث الخطيرة، واصطليا بنارها أكثر مما اصطلى هو.

البارودى هو شاعر مصر خلال الثورة العرابية ، وقد أنصفه الدكتور هيكل حين قدم ديوانه للناس . وقال عنه :

« ونحن نحاول اليوم أن نتلمس الجديد فى شعر البارودى ، ونقصد بالجديد ما أبدع من أغراض لم تكن مطروقة فى عهد الأولين ممن بعث لفنهم وشعرهم ، وما كانت ذاتيته قوية واضحة فيه ، وما يتصل بالحاضر مما جعله الشعر الأوربى من أغراضه . فيأخذ بألبابنا ما فى ديوانه من الشعر السياسى . ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية ، والحياة المصرية ، أما ما خلا ذلك فلم يعد البارودى فيه مقاصد المتقدمين من شعراء العرب ، ولم يعد أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم » .

وكانت رسالة البارودى – كما يقول الدكتور هيكل – هى بعث الشعر العربى من مرقده ، وتمزيق الأكفان التى احتوته مئات السنين . وما وفق له البارودى من هذا البعث الجديد لايزال حتى اليوم أعظم تجديد تم فى حياة الشعر العربى منذ نهض البارودى به ، لا يقرن إليه إلا ما وفق له شوقى حين وضع مسرحياته الشعرية الخالدة : مجنون ليلى ومصرع كليوباترا وما إليهما .

ولذلك فإن الدكتور (هيكل) لم يعجب بالبارودى وشوقى عبثاً ، بل كان يعرف قيمة شعرهما فى الحياة المعاصرة . ولم يكن فى استطاعته أن ينشئ أدباً مثل أدبهما كما طالبه الدكتور طه حسين ، لأن (هيكل) ليس شاعراً .

كان طه حسين يرى فى البارودى وشوقى رأيا متعصباً ، يلجئه فى بعض الأحيان إلى الخروج عن منهجه فى النقد . بل إن تصوره لشعر الملاحم عند اليونان ، وإعجابه بوحدة القصيدة فى الشعر الأوربى ، جعله شديد التجنى على الشاعرين الكبيرين .

ولكن (طه حسين) لم يطبق نظريته فى الشعر على أبى العلاء ، بل كان يهتز

طرباً كلما أنشد نظماً سخيفاً من اللزوميات العلائية .

والحقيقة هى أن (طه حسين) لم يكن أول ناقد عربى عقد المقارنات بين شعر الملاحم اليونانية ، وشعر القصائد العربية : فقد سبقه إلى ذلك سليمان البستانى مترجم إلياذة هوميروس من اليونانية إلى العربية . فقد تعلم البستانى اللغة اليونانية القديمة وأتقنها قبل ترجمة الإلياذة . وقد مكنته ظروفه الثقافية والوظيفية من الاشتغال بالأعمال الأدبية العظيمة ؛ فهو من دوحة الأسرة البستانية الشهيرة بالعلم والأدب فى لبنان . وكان وزيراً فى الدولة العثمانية ، بل إنه كان أول وزير عربى فى دولة الخلافة فى إسطنبول . وقد كتب سليمان البستانى مقدمة لترجمة الإلياذة تعتبر أول نص نقدى علمى فى الآداب العربية الحديثة . وقد تحدث عن شعر الملاحم وعن وحدة القصيدة . وعن وحدة البيت الواحد من الشعر ، أو شطر البيت .

وعندما تحدث طه حسين عن هذه الموضوعات اعتقدنا أنه يقدم لنا جديداً لم نكن نعرفه من قبل . وكان رأيه فى شعر شوقى هو ماقدمته إليك بكلماته فى إيجاز .

ذكر الدكتور (زكى مبارك) أن (شوقى) طلب إليه كتابة مقدمة أدبية للشوقيات فى طبعتها الجديدة التى صدرت عام ١٩٢٦ ، فأحجم عن ذلك واعتذر . ثم حدث صديقه (طه حسين) بذلك عندما كانت بينهما صداقة ، فقال له طه حسين : إنه من الشرف للكاتب أن يقدم الشوقيات ، وإن شوقى لو طلب منه ذلك ماتردد لحظة واحدة .

وكان (زكى مبارك) عيوفاً أنوفاً شديد التأثر بكل ما يدور حوله ، ولذلك اعتقد فى قرارة نفسه أنه لو كتب مقدمة للشوقيات لقال الناس عنه : إنه أخذ مالاً من شوقى ؛ فقد كان أمير الشعراء كثير الهبات والصلات ، وكان يشترى الأقلام حتى لاتهاجمه ، على طريقة الخديويين والملوك والحكام ، فامتنع عن كتابة المقدمة برغم حبه الشديد لشوقى ، حتى إنه ظل القلم الذى لم يهاجمه قط ، ولم ينتقص من

قدر شعره ، بل إنه كان داعية دعاة عبقريته .

ولكن .. ماقصة الدكتور هيكل مع شوقى ؟

للتاريخ يجب أن نذكر أن الدكتور (هيكل) كتب المقدمة للشوقيات عام ١٩٢٦/٢٥ ، ثم كتب المقدمة لديوان البارودى بعد ذلك بسنوات ، حيث طبع الديوان عام ١٩٥٢ ، ولكن قرار طبعه كان قد صدر قبل ذلك عندما كان محمود فهمى النقراشى وزيراً للمعارف[1] . ونحن لانعرف متى كتب هيكل مقدمته لديوان البارودى على وجه التحديد ؟ وهذا لايهم كثيراً ، بل إن الملاحظة الهامة هى أن الدكتور (هيكل) قدم البارودى بعد شوقى .

ولم يكن هيكل من نقاد الشعر ، ولعله لم يتعرض فى كتاباته الكثيرة للشعر والشعراء خلال أى عصر من عصور الأدب . وعندما كتب مقدمة الشوقيات كان غارقاً فى السياسة حتى أذنيه ، فقد رشحته الأحزاب المؤتلفة خلال تلك السنة للانتخابات فى دائرة الجمالية بالقاهرة ، وأيد سعد زغلول هذا الترشيح ، مع أن (هيكل) كان رئيساً لتحرير جريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين .

كما أن شوقى لم تكن له صلات بحزب الأحرار الدستوريين ، بل كانت له صلات بالوفد ، وخلال رحلة لسعد زغلول على ظهر الباخرة محاسن إلى بعض بلاد مديرية الجيزة فى مايو ١٩٢٦ – دار حديث حول مائدة الغذاء يوم ٦ من مايو بين محمود فهمى النقراشى والدكتور محجوب ثابت فى حضرة سعد زغلول عن شوقى وحافظ إبراهيم . وكان النقراشى يذيع أن الدكتور (محجوب ثابت) يحسد أمير

---

(١) تولى محمود فهمى النقراشى وزارة المعارف مرة واحدة من ١٨ أغسطس ١٩٣٩ إلى ٢٧ من يونية ١٩٤٠ فى وزارة على ماهر باشا وبذلك فإن قرار طبع ديوان البارودى يكون قد صدر خلال هذه الفترة أى أن الدكتور كتب مقدمته بعد كتابة مقدمة الشوقيات بسنوات .

الشعراء بسبب حفلات التكريم التى تقام له . ولم تكن هذه الأحاديث جادة ، بل كانت ممازحات يقصد بها الترفيه عن سعد زغلول وإسعاده ؛ فقد كان يحس بوطأة المرض . ويشعر باقتراب النهاية . ولم يجد أصفياؤه شيئاً يرفه عنه خيراً من الشعر . وكان الفارسان فى الميدان هما (شوقى وحافظ) .

ولكن (حافظ . إبراهيم) كان أشد قرباً لسعد زغلول من شوقى . بل إنه كان ملازما لبيت الأمة ، وله قصائده فى مظاهرة السيدات خلال ثورة ١٩١٩ وغيرها من القصائد التى مال بها إلى الوفد .

ويبدو أن (سعد زغلول) كان أشد ميلاً إلى شوقى ، كما كان من عشاق البارودى ، وكان يُشْهِدُ بأشعاره فى خطبه الرنانة . وعندما حدثت جفوة بين سعد وشوقى تدخل الشيخ عبد الرحمن الجديلى فى الأمر ، حتى ذهب زعيم الأمة إلى كرمة ابن هانئ ، وصالح أمير الشعراء . ونشرت لهما صورة فوتوغرافية على صدور الصحف .

وشوقى هو الذى رثى (سعد زغلول) بقصيدة لم يكتب مثلها فى الشعر العربى ، وقال فى مطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها . وانثنى الشرق عليها فبكاها

ثم ظل شوقى على حبه للوفد حتى الليلة الأخيرة من حياته ، حيث مر على صديقه توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد كبرى جرائد الوفد فى ذلك الزمان . وكان توفيق دياب واحداً من المترنمين بشعر شوقى فى المحافل والحفلات ، لأنه كان من كبار الخطباء أصحاب الأصوات الرنانة ، والوقفات والقفلات التى تحبب إليك الشعر ، وتحببك فى الشعر .

فى ذلك العصر كان الذين يترنمون بشعر شوقى مثل عشاق أم كلثوم ، فهم سمّيعة يتذوقون الشعر .

ولكن القدر شاء أن يكون الدكتور هيكل (الحرّ دستورى) هو كاتب مقدمة الشوقيات .

إن الموضوع ليس سياسياً كما نتوهم ، ولكنه موضوع أدبى فيه جانب من السياسة وقد كان شوقى يعامل السياسة منذ نشأته حتى آخر لحظات حياته . ونحن لانعرف كيف تم اللقاء بينه وبين الدكتور هيكل ؟ ولا كيف كتب هيكل مقدمة الشوقيات ؟ وما الدوافع التى دفعته إلى ذلك ؟

الطبعة الأولى من الشوقيات كتب شوقى بنفسه مقدمتها ، وكان فى إمكانه أن يعيد نشرها مع ديوانه . أو يعدلها ويهذبها كما يشاء ، بل إنه لم يكن فى حاجة إلى كاتب يقدمه فى شوقياته للناس . فقد أصبح أشهر من الشهرة . ولكنه عندما كتب قصيدته (نهج البردة) طلب من محمد المويلحى سيد كتاب عصره أن يقدمها للناس ، كما طلب من الشيخ سليم البشرى شيخ الإسلام أن يشرحها للناس ، ثم طبعها فى كتاب ، وقدمها هدية لمولاه الخديو عباس حلمى فى مناسبة حجه إلى بيت الله الحرام .

هل هى روح العصر فى التقديم والتقريظ ؟

كان شوقى نفسه يقوم بهذه الأعمال الفنية العجيبة ، وليس هذا غريباً فى الآداب العالمية ، فقد كان (جورج برنارد شو) يكتب مقدمات لبعض الكتب ، ومنها كتاب للشاعر الإنجليزى الصعلوك (دافيز) صاحب كتاب (حياة شخصية لصعلوك عظيم) ومنها كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) للبريطانى الشهير (لورانس) صاحب المغامرات فى جزيرة العرب وسيناء والقاهرة .

اشترك أمير الشعراء والدكتور هيكل فى تقديم كتاب صغير ، لايعرفه أحد ، وهو نظم شعرى لكتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع ، وكان ناظمه هو الشيخ (محمد عبد الرحيم تره) الذى اشتغل مدرساً للغة العربية فى بعض المدارس

بمحافظة الغربية .

ومقطوعة شوقى المنشورة فى هذا الكتاب من الشوقيات المجهولة ، ويقول فيها

بيان ابن المقفع عاد شعراً وفصل بالحقيقة والصواب
أتى عبد الرحيم به فصولاً روائع فى التحاور والخطاب
شوائق كالربا تحت الغوادى روائق كالينابيع العذاب
تطوف عليك من كرم القوافى ألذ من الغناء على الشراب

أما الدكتور هيكل فقد كتب مقدمة للكتاب الذى توفى صاحبه عام ١٩٣١ ، ووضح وجهة نظره فى الفن ، وقال : إن كتاب ابن المقفع قطعة من الأدب ، نقلت من النثر إلى الشعر ، وكان يتمنى أن تزين بالصور . وضرب مثلاً بأقاصيص (أيسوب) اليونانية التى نقلها (لافونتين) إلى شعر فرنسى بديع .

إن لقاء شوقى وهيكل على صفحتين متقابلتين من هذا الكتاب الذى لايذكره أحد له دلالة خاصة فى عالم الأدب ، وهى دلالة العظمة الشخصية التى تحفل بالرغبة فى إيقاظ النفوس الهامدة ، والمشاعر الجامدة نحو الحركة من أجل الحياة .

أمير الشعراء وكاتب عظيم يقدمان كتاباً يضم منظومات مصنوعة ، لاتساوى شيئاً فى تيار الحياة الأدبية ، ومؤلفه مدرس فى إحدى مدارس المحلة الكبرى .

هذا هو مقياس العظمة الشخصية عند هؤلاء العباقرة الكبار الذين يقبلون ولايرفضون ، ويشجعون ولا يقتلون ، والحياة الأدبية بعد ذلك لاتقوى ، ولاتزدهر إلا حين نسمع كلمة الأمل .

لقد التقى هيكل وشوقى فى لقاء العظمة الشخصية ، ولم تكن بينهما مصالح ، ولا صداقات ، ولا عداوات .

أين (لافونتين) من الشيخ محمد عبد الرحيم تره ؟

ولكن الدكتور (هيكل) كمثقف عظيم ينبه الأذهان إلى أن كل حرف يكتبه

كاتب أو ينظمه شاعر يجب أن نقدره حق قدره حتى لو كان هيناً يسيراً ، لأن الكلمة أساس الحياة .

لقد كان اختيار شوقى للدكتور هيكل فى كتابة مقدمة الشوقيات ، اختياراً ينم عن الذوق الرفيع ، والفهم الواعى ، لأن (هيكل) عرف بالرزانة والهدوء النفسى مع البراعة والدقة فى الأسلوب . وكان قد استرعى الأنظار عندما بدأ فى نشر تراجم بعض الشخصيات المصرية والأوربية ، التى جمعها فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) وسلك فى كتابة هذه التراجم طريقة وأسلوباً لم يعرفه كتّاب العرب من قبل . فهو يعرض شخصياته ويحللها بطريقة علمية داخل إطار الأسلوب الأدبى .

كان فن كتابة التراجم عند العرب من الفنون التى تنحو إلى التقرير ورواية التواريخ والأحداث فى أسلوب جامد .

فلان ولد فى عام كذا ، وتوفى فى عام كذا .

ثم أصبحت هذه التراجم تحمل اسم (الوفيات) منذ ألف ابن خلكان كتابه الشهير (وفيات الأعيان) ، وتابعه الكتاب فى طريقته حتى أيام الجبرتى .

أما تراجم الأدباء والشعراء فقد كانت نوعاً من أخبارهم ، وهى تخالف الكتابات التى كتبها بعض النقاد الذين اهتموا بالعمل الأدبى ، وأهملوا ترجمة حياة الشاعر أو الأديب .

ولكن الدكتور (هيكل) كتب التراجم بطريقة عصرية جديدة ، فيها إيجاز وبهر ، وفيها تعريف بالشخصية داخل تحليلها . ويبدو أن (شوقى) أعجب بهذه الطريقة فترك لصديقه كتابة مقدمة شوقياته .

غير أن (شوقى) كان صديقاً للدكتور طه حسين أيضاً ، وكان يدعوه إلى بيته ، بل إنهما كانا يصطافان معاً فى لبنان خلال بعض السنوات ، وكان طه حسين لامعاً فى سماء الأدب العربى .

فلماذا لم يطلب إليه شوقى كتابة المقدمة ؟

يبدو أن ذكاء شوقى كان يوصله إلى معرفة رأى طه حسين فى شعره . ولو أن هذا الرأى لم يظهر فى وضوح إلا بعد سنوات فى كتاب (حافظ وشوقى) الذى أصدره طه حسين .

لم ير طه حسين أن (شوقى) يجدد الشعر العربى ، بل كان يعتقد أنه شاعر يعيش فى الماضى ، وسبب ذلك أن (طه حسين) ظل طوال حياته ناقداً هجومياً . بدأ حياته النقدية بمهاجمة مصطفى لطفى المنفلوطى ، ثم هاجم (مصطفى صادق الرافعى) . ثم نصب العقاد أميراً للشعراء وهاجمه بعد ذلك وسخر من عبقرياته وقال : إنه لم يفهم كتاب (عبقرية عمر) ، وكان فى مجالسه الخاصة يتندر بعبقرية خالد ، ويقول : إن العقاد جعل من خطط خالد بن الوليد العسكرية ماهو أعظم شأنا من خطط بونابرت أو هندنبورج ؛ وفى السنوات الأخيرة هاجم كل الكتّاب ما عدا (توفيق الحكيم) . ولم يعجبه استهانتهم باللغة .

إن آراء طه حسين النقدية لايضمها خيط واحد ، وله عذر فى ذلك ؛ فقد كان أستاذاً كبيراً يجب أن نستمع إليه . كما كان غضوباً ينفر من مناقشة آرائه ، وهو الذى يدعو إلى حرية الرأى .

ولكنه كان يتمنى أن يكتب مقدمة الشوقيات كما قال الدكتور زكى مبارك . وقد قرأ طه حسين ما قاله زكى مبارك فلم يعترض عليه ، ولم يصدر عنه ما ينفى رواية زكى مبارك .

وهناك سبب آخر جعل أمير الشعراء لايفكر فى طه حسين كاتباً لمقدمة شوقياته ، وهو اتهام طه حسين عام ١٩٢٦ بالكفر والزندقة بعد صدور كتابه (فى الشعر الجاهلى) وما ثار فى مصر حين ذاك من آراء متعارضة حول موقف الأديب الكبير .

لم يبق أمام شوقى غير الدكتور هيكل ؛ فهو كاتب كبير شهير ، يليق اسمه بأن

يوضع فى صدر الشوقيات . وأنت تعلم أن أمير الشعراء كان شديد الاهتمام بالمظاهر ، بحكم نشأته وظروفه كشاعر للقصر . وكان قد استكتب (محمد المويلحى) مقدمة لقصيدة واحدة من قصائده هى نهج البردة ، عندما كان يلحى أشهر كاتب فى مصر .

إن تحليل الدكتور هيكل لشخصية شوقى وشعره ، من أمتع ما كتبه الكتاب عن قى ؛ ولم يكن إعجابه بأمير الشعراء إعجاباً بلا سبب ؛ فقد كان إعجاباً بالشعر الإعجاب بالشاعر .

لقد وقف الدكتور هيكل بحسه الفنى المرهف عند القصائد الخالدة لشوقى وهى تغنت بها أم كلثوم .

* ريم على القاع بين البان والعلم
* ولدى الهدى فالكائنات ضياء
* سلوا قلبى غداة سلا وتابا

كيف التقط الدكتور هيكل هذه القصائد من الشوقيات ؟

كيف التفت إليها فى براعة وذكاء ومعرفة ؟

هذا هو السر الذى جمع بين شوقى وهيكل ..

وسبحان من يعرف الأسرار فى نفوس البشر !

أما أسباب صداقة الدكتور هيكل بأمير الشعراء فلها قصة : فقد كانت جريدة أهرام تنشر قصائد شوقى فى صدر صفحاتها ، وتسميه (أمير الشعراء غير منازع لا مدافع) فاحتالت جريدة السياسة على نشر قصائد شوقى ، وكان الدكتور هيكل و صاحب الحيلة ، فأعلنت أنها تقدم خمسين جنيهاً إلى الجمعية الخيرية الإسلامية ، كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقى .

ورأى شوقى أمام هذه الحيلة البارعة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة

بأشعاره ، فانتقلت قصائده من الأهرام إلى السياسة ، وتوثقت صداقته بالدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة .

ولكن الذى حدث بين هيكل وشوقى بعد صدور الشوقيات كان حدثاً من الأحداث التى تروى : فقد أعلن عن احتفال يقام بدار الأوبرا تحت رعاية الزعيم سعد زغلول لتكريم شوقى ، والمناداة به رسمياً أميراً للشعراء .

وأقيم الحفل فى التاسع والعشرين من أبريل عام ١٩٢٧ ، وحضره أدباء العرب من أقطارهم كافة وبايعوا (شوقى) بإمارة الشعر . ورأى الدكتور هيكل من واجبه أن يصدر عدداً خاصاً من (السياسة الأسبوعية) لتكريم شوقى .

ورأى شوقى من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد .

وكانت (السياسة الأسبوعية) فى تلك الأيام توجه التيار الأدبى فى مصر وفى سائر البلاد العربية ، وكان إصدار عدد خاص عن شاعر فى مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف . ولكن (شوقى) لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص ؛ فقد ظهرت عبارات تغضى كثيراً أو قليلاً من أمير الشعراء .

وغضب شوقى على ذلك العدد من السياسة الأسبوعية ، وغضب معه بعض المرتزقة من أدعياء الأدب ، فهاجموا الدكتور (هيكل) فى الوريقات الصفراء التى كانت تصدر فى مصر حين ذاك ، وتسمى نفسها باسم الصحف والمجلات .

ثم كتب الدكتور هيكل مقالاً شهيراً فى السياسة الأسبوعية كان عنوانه (أخلاق شاعر الأخلاق) وذكر ماكان بينه وبين شوقى ، وتوعده توعداً فظيعًا وقال : إن (شوقى) لن يظفر منه مرة أخرى بمثل ذلك الاحتفال !

انطوت صفحة الصداقة بين شوقى وهيكل .. ولكن ظلت مقدمة هيكل للشوقيات فى مكانها المرموق لاتتزحزح . ومن خيوط هذه المقدمة ألف المؤلفون كتباً عن شوقى ، فإن كل كلمة فيها توزن بميزان الذهب .

ولكن الدكتور (هيكل) الذى خاصم (شوقى) فى حياته بعد صداقة حميمة لم يتردد قلمه عن كتابة رسالة طويلة فى جريدة السياسة يرثى بها أمير الشعراء ، ويتحدث عن ذكرياته معه .

ومعظم الدارسين لشوقى لم يعرفوا هذه الرسالة ، وظنوها كلمة رثاء . مع أنها دراسة عظيمة عن أمير الشعراء .

٨ – الدكتور زكى مبارك

الدكاترة زكى مبارك .

شخصية محيرة ! مع أننى لم أعرف أديبا أشد وضوحاً ، وأكثر صراحة ، وأعظم نفساً من هذا المظلوم !

فلاح مصرى استبدل بفأسه القلم ، ثم بدأ يعزق حقول الأدب والفكر ، ويقلب الأرض ، ويزرع الأشجار !

جَسُورٌ مثل زهران فلاح دنشواى الذى شنقوه ، فرأى فى موته حياة لكل الفلاحين .

عاشق يغنى الموال الأخضر تحت شجرة جميز عمرها ألف عام ، عند ساقية يدور فيها ثور معصوب العينين ، ويبحث عن بنت فلاحة يشرق وجهها تحت منديل أحمر تتدلى منه حبات خرج النجف فوق جبينها المرتفع دائماً مثل جبين نفرتارى :

متمرد على الظلم والظالمين . لايكف لسانه عن الهجوم والسخرية . ولكنه يضحك ، لأنه طيب القلب . لايعرف الحقد ، وحياته كلها حب .

وصلة زكى مبارك بشوقى قديمة ؛ فقد تعارفا بعد عودة شوقى من المنفى عام ١٩١٩ ، وكان ذلك فى بيت عبد اللطيف الصوفانى وكيل الحزب الوطنى ، وكان زكى مبارك فى ذلك الوقت رئيساً لتحرير جريدة الأفكار ، وهى إحدى صحف ثورة ١٩١٩ ، وكان مقرها فى شارع قولة بحى عابدين على بعد خطوات من جريدة المقطم .

انتهت هذه المقابلة العابرة .. واعتقل زكى مبارك الشاب الأزهرى الثائر . ثم خرج من المعتقل وهو يتهدد (شوقى) بسبب قصيدته التى قالها عن مشروع ملنر لإلغاء الاحتلال البريطانى فى مصر ، واستبداله باتفاق شرعى على الاحتلال .

خرج زكى مبارك من المعتقل فى خريف ١٩٢٠ ، فكتب مقالاً فى جريدة المحروسة ينقد فيه قصيدة شوقى عن مشروع ملنر ، فغضب الشاعر ، وأضافه إلى خصومه الألداء .

ثم شاء القدر أن يلتقيا مرة أخرى .

وسأل زكى مبارك أمير الشعراء عن أسباب كتابته لقصيدة لورد ملنر ، فقال له شوقى : إنه كتبها تحت ضغط من مطالبة مصطفى النحاس وعبد اللطيف المكباتى ، وهما من كبار أعضاء الوفد الذى كان يعارض مشروع ملنر فى العلن ، ويؤيده فى الخفاء . وهذه هى ألاعيب السياسة التى تختفى وراء الآثار الأدبية .

إن أمير الشعراء قد نفاه الإنجليز من مصر بسبب قصيدته التى قال فيها بعد عزل الخديو عباس وتولية السلطان حسين كامل :

وانفض ملعبه وشاهده على أن الرواية لم تتم فصولا

وسارت القصيدة على ألسنة الناس ، وسرت كما تسرى النار فى الهشيم ، مما دعا

السلطة البريطانية إلى إبعاد أمير الشعراء عن مصر.

وكان حافظ إبراهيم قد آثر السلامة ، فهنأ السلطان (حسين) الذي ولاه الإنجليز قائلا :

ووال الإنجليز فهم رجال من الآداب قد نهلوا وعلوا !

وعندما عاد أمير الشعراء من المنفى لم يرد أن يتكرر معه ما سبق أن عرفه من النفى والتشريد ، فكتب قصيدته فى تأييد مشروع ملنر ، ولامه زكى مبارك على ذلك ، ثم عرف الحقيقة عندما التقيا لقاء محبباً.

كانت جريدة السياسة التى يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل قد احتالت كما تقدم على نشر قصائد شوقى التى كانت جريدة الأهرام قد خصت نفسها بها ، فرصدت خمسين جنيهاً تقدمها هدية للجمعية الخيرية الإسلامية ، عن كل قصيدة تنشرها لشوقى.

وبدأت الأهرام تغمز أمير الشعراء الذى طار من بين يديها ، فكتب الدكتور زكى مبارك مقالاً فى مجلة الصباح يلوم فيه الأهرام على تصرفها ، وأعجب شوقى بمقال زكى مبارك ، فدعاه مع حفنة من الأصدقاء إلى الغداء على مائدته ، وتم بينهما لقاء عظيم . حتى أصبح زكى مبارك صديقاً شخصياً لشوقى ، يزوره فى مكتبه بشارع جلال كل صباح.

وعندما كان شيطان الشعر يلعب بخيال أمير الشعراء لم يكن يرغب فى صحبة أحد معه فى جولاته الهائمة غير زكى مبارك.

ذات صباح ، شرب شوقى فنجاناً من الشاى فى مكتبه بشارع جلال ، وقدم لضيوفه بعض قطع (الكرواسان) التى كانت تعد بكميات وافرة ، وهى إحدى هوايات شوقى ، فيأكل واحدة ، ويقدم لضيوفه منها . وكان زكى مبارك على عادته يجالس أمير الشعراء الذى وقف فجأة ، وأخذ زكى مبارك فى يده ، ثم خرج.

وسارت بهما السيارة إلى كوبري قصر النيل ، ثم نزلا منها . ووقف شوقى عند سور الكوبرى ، وبدأ يكتب على ظهر علبة السجاير .

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟ وبأى كف فى المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من : عليا الجنان جداولاً تترقرق ؟

واستمر يكتب القصيدة الخالدة التى لم يكتب مثلها عن النيل ، والتى غنتها أم كلثوم ، فبعثت فيها خلوداً فوق خلود .

وفجأة انهار أمير الشعراء وتهاوى ، ولم تعد ساقاه تستطيعان حمله ، وقال لزكى مبارك :

– احملنى .

فحمله ، كما يُحمل الطفل ، وعاد به إلى السيارة . ويقول زكى مبارك : إن أحمد شوقى أمير الشعراء طفل ، وإنه أخف فى وزنه من ريش النعام ! وكان شوقى يبكى بكاء الأطفال ، ويغمغم (من أى عهد فى القرى تتدفق) .

وكانت المرة الأخرى التى حمل زكى مبارك أمير الشعراء على كتفه هى يو. جنازة شوقى ، فقد تقدم زكى مبارك ، والدكتور أحمد زكى أبو شادى وبعض أعضاء جماعة «أبوللو» الشعرية التى كان شوقى رئيسها ، وحملوا النعش على أكتافهم ، وقال زكى مبارك للمرة الأخرى : إن نعش شوقى كان أخف من ريش النعام !

صحب زكى مبارك أمير الشعراء مدة تزيد على سنتين ، وهو يقول :
«عرفت الشاعر معرفة حقيقية ، وكان تحفة فى سلامة الذوق ومتا: الأخلاق»

طلب منى أن أكتب مقدمة الشوقيات فاعتذرت بأن المقدمات يراعى التلطف ، وأنا أكره أن أتقيد برأى قد أنكره فيما بعد حين أجد قصيدة ضد

توجب الهجوم عليه . فقال شوقى جملة بالفرنسية معناها : (وأنا لا أفرض أى شىء)

وفى المساء لقيت الدكتور (طه حسين) ، وكان جارى فى مصر الجديدة ، وقصصت عليه مادار بينى وبين شوقى ، فتجهم وجهه وقال :

– يظهر أن رأيى فيك لن يتغير يادكتور زكى ، وهو أنك رجل عبيط ، أنا خاصمت (شوقى) وخاصمنى وهو يغدق الأموال على كتاب مأجورين يشتمونى فى الجرائد والمجلات ، ولو أنه اقترح أن أكتب مقدمة الديوان لرأيت هذا من التشريف ؛ لأن (شوقى) فى رأيى هو أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبى .

فقلت :

– أنا أرى أنه أشعر من المتنبى

فقال الدكتور طه :

– مادام هذا رأيك فما الذى منع من أن تكتب المقدمة ؟

فقلت :

– لأحتفظ بحقى فى نقده حين يخطئ

فقال الدكتور طه :

– إن (شوقى) لايخطئ !

قلت لك : إن (زكى مبارك) رجل محيّر ، لا تعرف آخره من أوله ، كما يقول العامة برغم وضوحه الظاهر ، وطيبة قلبه ، وشجاعته وبراعته .

إنه يقول :

«كان حافظ أذكى من شوقى بمراحل طوال ، وأشعر منه بلا جدال ، وسيقول التاريخ : ما أقول بعد زمن أو أزمان » .

ونحن لانعلم بأى مقياس من مقاييس النقد ، قال الدكتور زكى مبارك هذا

الرأى ، فإن (حافظ إبراهيم) نفسه اعترف لشوقى بإمارة الشعر ، وقال فى حفل تنصيب أمير الشعراء :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا : وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولكن الدكاترة (زكى مبارك) ، وهو من أكابر العلماء الأدباء الظرفاء – كانت له شطحات فى بعض الأحيان .

وقد كان حافظ إبراهيم رئيساً له فى القسم الأدبى بدار الكتب المصرية عندما اشتغل بها فترة من فترات حياته الممزقة ، وكان حافظ يعرض عليه قصائده ليرى مافيها من أخطاء قبل نشرها ، ولكن (زكى مبارك) عجز عن وجود هذه الأخطاء ؛ لأن (حافظ) كان مثل شوقى لايخطئ .

ولكن (زكى مبارك) كان يرى أن أسباب لمعان شوقى ووصوله إلى إمارة الشعر هى : المال والفراغ والعبقرية . وقد امتلكها أمير الشعراء . أما حافظ فلا مال ولا فراغ ، ولكنه امتلك العبقرية ، وليس الفراغ هو فراغ الوقت ، ولكنه فراغ السعادة والحياة الهنيئة الرَّغْد .

ونظرية زكى مبارك لا أساس لها فى مفهوم النبوغ الأدبى ، فقد عاش المتنبى شريداً طريداً ، باحثاً عن المجد ؛ حتى قتل وهو يحمل على جواده أكياس الذهب .

ونحن لانستطيع أن نقول : إن (حافظ) كان أكثر ذكاءً من شوقى ، إلا إذا كان الذكاء هو القدرة الكلامية ، أو إطلاق النكت ، أو التفوق على أفكار العامة وأشباههم فى المجادلات . وهذه إحدى ميزات حافظ إبراهيم .

إن مقياس الذكاء هو القدرة على المعرفة . وليس هناك شك فى أن (شوقى) كان أكثر معرفة من حافظ ، وكان عقله الباطن أكثر استيعاباً من عقله الظاهر ، حتى فى المعارف العربية واللغوية . ودع عنك معرفته للحضارة الأوربية وآدابها وفنونها .

لقد عجب الدكتور هيكل عندما سأل (شوقى) عن كتاب يوازى فى نظره كتب الآداب الأوربية ، فقال له أمير الشعراء : إنه كتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ المرصفى ، فطالع الدكتور هيكل هذا الكتاب ولم يستطع الاستفادة منه ، لأن ثقافته لم تمكنه من فهم الآداب العربية على الطريقة الأزهرية ، وهى طريقة لها جذور فى حياتنا ، ولابد من أن تبدأ من البداية . ولم يكن شوقى أزهرياً ، ولكنه عرف الثقافة العربية عن هذه الطرق الصعبة ، عندما تتلمذ على الشيخ المرصفى وحفنى ناصف والشيخ زكى سند .

ولولا الذكاء ما استطاع شوقى أن يجمع بين الثقافتين العربية والأوربية . وقد حاول حافظ هذه المحاولة عندما ترجم رواية (البؤساء) لفيكتور هوجو ، ولكنها ترجمت له ، فأعاد صياغتها باللغة العربية . ولم يعرف من الآداب الأوربية إلا ما كان يقرؤه مترجماً ، أو يسمعه ممن يعرفون هذه الآداب .

إن ذكاء الشاعر ليس هو ذكاء ابن البلد ، وهناك بين أبناء البلد من هم أشد ذكاء من كبار العباقرة ، إذا كان مفهوم الذكاء هو اللمحات الخاطفة ، والبريق الكلامى .

أما المال فإنه ليس من أسباب النبوغ ، وإلا فإن أصحاب الملايين كان يجب أن يصبحوا من النابغين .

والمشاركة (الوحيدة) بين شوقى وحافظ هى العبقرية على غير خلاف . والعبقرية منحة إلهية لافضل للإنسان فيها ، تزكيها بعد ذلك أشياء أخرى مكتسبة ، أو موروثة .

برغم ذلك اعترف زكى مبارك بعبقرية شوقى ، وكانت كتاباته عنه من أعظم الدلائل على هذا الاعتراف . وقد جمعت الأديبة الشاعرة كريمة زكى مبارك ما كتبه والدها عن شوقى فى كتاب من أمتع الكتب .

ظل زكى مبارك طوال حياته مؤمناً بعبقرية شوقى ، برغم بعض شطحاته . وهذا أمر لايستغرب منه ، فقد كان عقله متوهجاً يكاد يشتعل ؛ كما كان حسه المرهف يدفعه فى بعض الأحيان إلى كتابة مقالات مشتعلة تطغى فيها العاطفة على العقل ، وظل هكذا حتى آخر لحظات حياته .

إن تاريخ حياة زكى مبارك مأساة من مآسى الأدب المصرى الحديث . وقد كان يتحدى المأساة بالعزم والصبر والعلم ، وأشد أهوال مأساته أنهم كانوا يحاربونه فى رزقه ورزق أولاده ! وكانوا يريدون له أن يجوع حتى يذل ! ولكنه ظل مرفوع الرأس ، وعصاه فى يده ، وقلمه فى اليد الأخرى .

لوشاء الغنى وهو أقرب المقربين إلى شوقى لاستطاع الوصول ، لا عن طريق الهبات الشوقية التى كان يأنف منها ويرفضها ، ولكن عن طريق النفوذ الشخصى لأمير الشعراء الذى كان يستطيع مخاصمة زعيم الأمة سعد زغلول .

وعندما أقيمت حفلة الأوبرا لتنصيب شوقى أميراً للشعراء وكان رئيس الشرف هو سعد زغلول ، كتب عباس محمود العقاد مقالاً افتتاحيًّا فى جريدة البلاغ ، قال فيه : إن الأمة التى تحتفل بشوقى لا تعرف معنى الكرامة ، فدعاه سعد إليه وقال له :

–كان يجب ياأستاذ أن تلاحظ أن الحفلة تحت رياستى .

فقال العقاد :

– أنت لاتعرف الشعر ياباشا

فقال سعد :

– أنا لاأعرف الشعر ، وإنما أعرف الذوق ، وأحب أن تكون هذه هى آخر مرة تزور فيها بيت سعد زغلول !

ودعا سعد زغلول الأستاذ عبد القادر حمزة رئيس تحرير البلاغ لزيارته ، وقال له :

– فى صدر جريدة البلاغ تنشر مقالة فى شتم أمير الشعراء أحمد شوقى ؟

فقال عبد القادر حمزة :

– الشعر للشعراء .. وأنا أبيح لكل كاتب أن يكتب ما شاء .

وكان عبد القادر حمزة من أشد المعجبين بشوقى ، وعندما توفى أمير الشعراء ، كانت افتتاحية جريدة البلاغ مرثية لشوقى ، وقال عبد القادر حمزة :

« لم يكن شوقى شاعراً وكفى ، بل كان مَجْداً لمصر فى عصره كله ، وعصره هذا يمتد من أخريات عهد إسماعيل باشا إلى اليوم ، فهو يبسط جناحيه على نصف قرن كامل تقلبت فيه على الشعر والأدب أطوار ، منها اللين ومنها العنف ، حتى إذا عقدت له رياسة الشعر بعد ذلك لم تكن هذه الرياسة مرتبة يرفع إليها ، بل كانت شهادة بالمرتبة التى وصل إليها .

ولم تقف هذه الرياسة عند حدود مصر ، بل تجاوزتها إلى كل بلد ، فصارت رياسته بذلك رياسة لمصر ، وصار مجده مجداً لمصر . وقد نبحث فى تاريخ الأدب العربى كله فلا نجد لوطننا من الرياسات فيه إلا القليل النادر ، وقد تكون رياسة شوقى أكثرها كلها إجماعاً وأشدها بروزاً » .

وبهذه المقالة رد عبد القادر حمزة على عباس محمود العقاد ، ولكن صاحب البلاغ كان كاتباً سياسياً ولم يكن من الأدباء . وكانت نظرته إلى شوقى ترتبط بقيمة مصر ، ولذلك قال فى مقاله عن أمير الشعراء :

«كان مجده الأدبى مدى خمسين عاماً مجداً لبلاده ، ومجداً للغته ، وسوف يبقى هذا المجد لاتزيده الأيام إلا علواً ، ولاتزيد معدنه إلا نصوعاً ما بقى شعر وأدب »

وأنا أذكر لك هذا لأن (زكى مبارك) كان من أكابر كتاب جريدة البلاغ وهى أول دار صحفية مصرية خالصة ظهرت فى تاريخ الصحافة المصرية ، بناها وأقام دعائمها حجراً فوق حجر ، وأعد لها آلات الطباعة ذلك العظيم عبد القادر

حمزة باشا .

لقد كتب زكى مبارك على صفحات البلاغ روائع كثيرة عن شوقى ، وكان يخالف العقاد والمازنى – وهما أيضا من كتاب البلاغ – حول شوقى ، ولكن لم تدر بينهم معارك على صفحات الجريدة ، وكان لكل فريق رأيه .

وخلف (دار البلاغ) أنشأ (مصطفى الفشاشى) مؤسسة صحفية أخرى هى (دار الصباح) وكان زكى مبارك من كتاب الصباح عندما كانت أشهر مجلة مصرية ، وأوسعها انتشاراً .

على صفحات الصباح رحيق من قلم الدكتور زكى مبارك عن شوقى الذى قال عنه :

« لم أُسِئْ يوماً إلى شوقى الشاعر والحمد لله ، وإن كنت بعت حظى مع شوقى الصديق ، وقد عانيت فى سبيل إعجابى بشعره نكبات عديدة ، فإن ناساً كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا إلى هدمه شتى الشعاب .

وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً ، وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية ، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان .

والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود ، وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند إليها ضعفاء النفوس والعقول مادام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق .

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقى أخلاقه ووطنيته ، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ، ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائقة .

الكلام مثل حبل الصوف كما يقول الفلاحون فى مصر ، كلما غزلته طال ،

وامتد بك حتى الصباح .

الدكتور زكي مبارك هو الأديب الوحيد الذى لم ينصفه الزمان ، وظلمه كثيرون من معاصريه ، وهو الأديب الوحيد الذى أنصف أمير الشعراء عن حب وود ، وتقدير وإعزاز لقيمة الشعر.

أليس يكفى أن يقول لنا ؟

– لتنظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ .

٩ – الدكتور محمد صبرى السوربونى

هذا الرجل كان من أكبر عشاق شوقى .

والدكتور صبرى أستاذ بمعنى الأستاذية الحقِّ ، وقد ظلمته الدنيا ، حتى إنه فى سنواته الأخيرة قبل أن يلقى وجه ربه لم يلتفت أحد إليه ، ثم نشرت عنه بعض المجلات مقالات تعترف بالتقصير فى حقه بعد موته .

كان مؤرخاً أديباً صاحب قدم راسخة فى التاريخ والأدب على السواء . ومن أعظم أعماله كتاب (الشوقيات المجهولة) الذى طبعه فى جزأين كبيرين ، وجمع فيه ماتشتت من أعمال شوقى الأدبية شعراً ونثراً ، مما لم ينشر من قبل فى كتاب .

لقد نبش الدكتور صبرى الصحف والمجلات التى كانت تنشر أعمال شوقى ، واستخرج منها هذا الكتاب الفريد .

إن (شوقى) مازال وسيظل موضع البحث والنزاع بين الأدباء والباحثين ، كما

قلت لك فى البداية .

ومن الوقائع الثابتة أن جريدة الأهرام هى التى أذاعت على الملأ لقب شوقى (أمير الشعراء) : فقد نشرت له قصيدة فى ١٨ من يناير عام ١٩٠٨ ، وصدرتها باسمه مقروناً باللقبين وهما :

شاعر الأمير وأمير الشعراء .

والقصيدة التى كتبها شوقى ونشرتها الأهرام كانت تهنئة للخديو بعيد الأضحى ، وكان شوقى هو شاعر الأمير ، أو الشاعر الرسمى للأمير .

ولكن داود بركات رئيس تحرير الأهرام فى ذلك العصر كتب يقول :

« لقد يكون فى مفاخر حياتى الصحفية أنى لقيت (أحمد شوقى) بك فى سنة ١٨٩٩ على صفحات الأهرام ، وأنا حديث العهد بتحريرها — بأمير الشعراء ووصفت قصائده بالشوقيات ، وكانت الأهرام يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراقى وكان المرحوم صاحبها بشارة تقلا باشا الذى رثاه شوقى بالبيت المشهور الذى ذهب مذهب المثل : رجل مات والرجال قليل .

من أكبر المعجبين بشوقى وبشعره وبذكائه وحصافته .

ولكن داود بركات لم يذكر أو يتذكر أن بشارة تقلا عرض على شوقى رياسة تحرير الأهرام بأضعاف راتبه فى القصر الخديوى .

ولما ظهر حافظ إبراهيم أطلقت عليه الأهرام لقب شاعر النيل .

ولست أدرى من الذى أطلق على خليل مطران لقب شاعر القطرين أى مصر والشام؟ ثم تلقبت بهذا اللقب المغنية (فتحية أحمد) وكانت تسمى باسم مطربة القطرين .

وأنت ترى أن اسم أحمد شوقى لمع فى مصر والعالم العربى كما ذكر داود بركات ، حتى أصبح أمير الشعراء العرب منذ نهايات القرن التاسع عشر .

وكانت قصائد شوقى تنشر فى الوقائع الرسمية ، حتى نشر أولى قصائده فى

الأهرام فى ٣٠ أبريل ١٨٩٢ ، ثم أصبحت هذه القصائد تحتل صدر الجريدة التى منحته لقب أمير الشعراء ، ومنحها هو أعظم ما يمكن أن تناله جريدة يومية منذ نشأة الصحافة العربية حتى اليوم .

وشوقى من عشاق الصحافة ، ولكنه كان من أكبر الخائفين من الصحافة بسبب النقد الذى كان يوجه إلى شعره ، وهو الرقيق الحساس الذى يضيق أشد الضيق بالنقد ، وقد ضايقه بعض زعانف الكتاب حين هاجموه ، وكانوا يبتزون منه الأموال .

لقد كتب شوقى شعار جريدة (الجهاد) التى أصدرها صديقه توفيق دياب فى الثلاثينيات ، وهو البيت المشهور :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهاد

ولكن الذى أريد أن أحدثك عنه أمر آخر نسبه الذين ألفوا عن أمير الشعراء ، وكتبوا عنه الدراسات والمقالات والكتب : فقد رشح شوقى لجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٢١ وهى السنة التى نالها فيها (أناتول فرانس) وكان فى تلك الفترة من الكتاب المعروفين عند العرب وقد كتب عنه كثيرون من كبار الكتاب ، وألف عنه الأمير شكيب أرسلان الذى كانوا يطلقون عليه لقب أمير البيان كتاباً سماه (أناتول فرانس فى مباذله) .

وهناك صلات بين شوقى وبين شكيب أرسلان وقد التقيا فى باريس وقال أرسلان : إنه هو الذى سمى شعر شوقى الشوقيات ، على خلاف ما ذكره داود بركات رئيس تحرير الأهرام الذى زعم أنه هو صاحب الاسم .

المهم هو أن الناس يتنازعون حول كل شىء عظيم .

ولكن الأهم هو أن شعراء العرب وكتابهم وأدباءهم بايعوا الشاعر العظيم بإمارة الشعر بعد ذلك ، ولم يتخلف واحد منهم عن مبايعته ، وكان قد حمل لقب

الإمارة فأقروا له .

وقد عجب كثيرون لأن (أحمد شوقى) بك لم يحمل رتبة الباشوية ، وكان هو نفسه يطلب هذا اللقب ، من الخديو عباس حلمى لكثيرين ، حتى اتهموا أمير الشعراء بأنه كان يأخذ سمسرة على منح الألقاب خلال فترة حكم عباس حلمى وكان شوقى من خلصائه ونفى بسببه إلى إسبانيا ، بعد أن عزل من الملك وعين الإنجليز السلطان (حسين كامل) بدلاً منه خلال الحرب العالمية الأولى .

لماذا لم ينل شوقى بك رتبة الباشوية ؟

ولماذا لم يمنحه إياها خديو مصر عباس حلمى ؟

فى صيف عام ١٨٩٩ سافر شوقى إلى الآستانة عاصمة الخلافة ، وسجل رحلته فى سلسلة مقالات نشرتها جريدة المؤيد (أغسطس – سبتمبر ١٨٩٩) تحت عنوان :

– بضعة أيام فى عاصمة الإسلام .

وكان شوقى قد قدم الشوقيات إلى مولانا أمير المؤمنين عبد الحميد الثانى ، بمقطوعتين من شعره قال فى الأولى :

سلام الله لا أرضى سلامى : فكل تحية دون المقام
وعين من رسول الله ترعى . وتحرس حامل الأمر الجسام

وقال فى المقطوعة الأخرى :

إلى ابن محمد أهدى كتابى : وإن الشعر ريحانُ الموالى
وراحة كل ذى ذوق سليم : وما شرب الملوك ولا استعادوا
كهذى الكأس من هذا النديم

وسر السلطان عبد الحميد سروراً عظيماً عندما رفعت إليه الشوقيات ، وأهديت باسمه إليه ، فمنح (أحمد شوقى) بك أرفع ألقاب السلطنة العثمانية ، وهو لقب الأمراء من آل عثمان أبناء السلاطين .. وهذا اللقب هو لقب : أفندى وهو

اللقب نفسه الذى يحمله خديو مصر، وكان يقال له : أفندينا لهذا السبب.

ولذلك لم يكن فى استطاعة الخديو عباس حلمى أن يمنح (أحمد شوقى) لقباً يقل عن لقبه الذى منحه له سلطان آل عثمان ، وأنت تعلم أن خديو مصر تابع من أتباع السلطان العثمانى.

وقد كان بعض معاصرى شوقى يقولون له : أفندينا ، ولكنه كان يفضل أن يلقب بلقب الباشا حتى لايغضب الخديو.

أما حكاية جائزة نوبل فإنها قصة أخرى.

لقد نال طاغور شاعر الهند هذه الجائزة عام ١٩١٣ ، ورأى أدباء العرب أن ، شاعرهم ليس أقل شأناً من طاغور ، ثم ازداد تنبههم عندما نال (أناتول فرانس) الجائزة فى سنة ١٩٢١ . فكتبت مجلة (الكشكول المصور) فى ديسمبر ١٩٢١ مقالاً تحت عنوان :

(شعر شوقى وجائزة نوبل .. اقتراح على سليم سركيس)

واقترحت مجلة الكشكول أن يقوم سركيس بمعونة إخوانه وأصدقائه الأدباء بجمع منتخبات من شعر شوقى وترجمتها ونشرها بين أدباء أوربا ؛ حتى يعرفوا قدر أحمد شوقى وعبقريته.

وكتب سليم سركيس مقالاً فى عدد ١٥ من ديسمبر ١٩٢١ من (مجلة سركيس) قال فيه :

«إن شوقى نفسه لسوء حظ الأدب العربى لايهتم بشىء مما يهتم له سائر الناس ، فمنذ نحو عشرين سنة انتشر بيننا ديوان (الشوقيات) ولا أدرى من جمعه وطبعه ؟ ولكنى أعلم أن الإقبال عليه كان عظيماً.

من ذلك الحين نضج شعر شوقى .. ثم إن العشرات من أصحاب المكتبات والمطابع طالما توسلوا إليه وطلبوا منه بإلحاح أن يسمح لهم بطبع ديوانه الثانى وهو لا يفعل.

ومما أذكره أنه كان عائداً من أوربا قبل الحرب ، واجتمع فى الباخرة وسعيد باشا شقير . وجرى بينهما حديث عن شعر شوقى والسبب فى عدم نشره ، فاعتذر شوقى بأنه يحتاج إلى ذى عزيمة ونشاط يرتب الديوان ويقدمه للطبع ويعتنى به ، فقال شقير باشا . إن فى سليم سركيس الغنى ، وهو القادر على كل ذلك .

روى لى هذا الحديث شوقى نفسه ، فوافقت وعرضت أن أفعل إذا هو دفع إلى قصائده ، فأجعلها فى أحسن نسق . وأجمل طبع . مع الشروح اللازمة فشكر ووعد .

وكان ذلك منذ عشر سنوات ، ولا أزال أنتظر فإذا كان شوقى لا يهتم كل هذا الزمان بنشر ديوانه ، مع علمه بميل الناس ، واستعداد أصحاب المكتبات والمطابع – فكيف ينتظر صاحب الاقتراح أن أكلف أنا نفسى كثيراً فى وقتى ونشاطى وإلحاحى لأتوسل إلى شوقى أن يساعدنى على قضاء هذه المهمة ؟

وانتهت القضية عند هذه الكلمات التى كتبها سليم سركيس ، ولم يهتم شوقى بالموضوع كله ، ولعله لم يلتفت إليه ، فقد كان الشاعر يحلق وحده فى السماء ، ويبحث عن قصيدة جديدة .. لا عن جائزة نوبل .

ومازال شعر شوقى حتى اليوم مبعثراً برغم أنه مطبوع فى ديوان اسمه الشوقيات . فهناك عشرات القصائد التى كتبها أمير الشعراء ونشرت فى الصحف ليس لها وجود فى الشوقيات .

وقد جمع الدكتور صبرى هذه القصائد فى كتابه (الشوقيات المجهولة) ولكن الشوقيات أعيد طبعها فى بيروت كما هى ، ونقلت مصورة عن الطبعة القاهرية .

والأمر العجيب أن أمير الشعراء لم يهتم بجمع شعره ، وكان فى استطاعته أن يصدر أمرا لسكرتيره الخاص بجمعه وحفظه ، ولكنه كان كثير التردد فى ذلك ، وكان فى بعض الأحيان يسقط أبياتا من قصائده التى نشرت ، ويعتقد أنها لاترقى إلى مستوى عبقريته ، ومن حق الشاعر أن ينخل شعره كما يشاء ، ولكن المشكلة

هى أن الشوقيات لم يتم طبعها كاملة إلا بعد وفاة أمير الشعراء.

حدثنى الشاعر محمود أبو الوفا أنه أشرف على إصدار الجزء الثالث من الشوقيات ، فقد صدر الجزء الأول والثانى فى حياة شوقى وبإشرافه ، وهذا الجزء الثالث يضم قصائد الرثاء ، ثم استعد لجمع المتفرقات من شعر شوقى لتصدر فى جزء رابع ، ولكن دخل فى الميدان الأستاذ سعيد العريان ، وأخذ من محمود أبو الوفا ماكان قد تيسر له جمعه من قصائد ، وأشرف على إصدار الجزء الرابع ، وكتب له مقدمة اعترف فيها بالعجز والتقصير. ولم يتعب نفسه فى استكمال قصائد أمير الشعراء.

لم تكن لسعيد العريان صلات بشوقى ، ولعله لم يعرفه قط ، ولكن (محمود أبو الوفا) كان على صلة وثيقة بأمير الشعراء ، حتى إن (شوقى) أقام حفلاً خاصاً فى مسرح الأزبكية تحت إشرافه لمعاونة الشاعر أبو الوفا . وشوقى هو الذى أذاع اسم (أبو الوفا) وصنع له الشهرة فى البداية ، ثم جاء محمد عبد الوهاب فملأ سمع الدنيا بأبيات الشاعر أبو الوفا التى يقول فيها :

عـنـدمـا يـأتى المسـاء ونجوم الـلـيـل تـظـهـر

وهى من أحلى وأعذب أغانى عبد الوهاب .

ولكن سعيد العريان خطف من أبو الوفا الجزء الرابع من الشوقيات .

وهذه الحكاية التى أرويها لك حتى أتعبتك معى كان سببها الدكتور محمد صبرى السوربونى المسكين الذى تعب سنوات طوالاً حتى جمع ما تفرق من الشوقيات المجهولة .

وكان السوربونى يريد كتابة تاريخ حياة أمير الشعراء ، ويسجل له تواريخ ومناسبات قصائده ، والأحداث والأسرار التى مرت به ، وقد حدثه فى ذلك .

يقول الدكتور صبرى :

«أذكر أنى رافقت (شوقى) فى رحلته إلى أوربا فى صيف ١٩٢٣ ، وكان يفكر وهو فى باريس فى الذهاب إلى شاطئ البحر فقلت له :

– أريد أن أنتهز هذه الفرصة لتأريخ حياتك وشعرك :

فبادهني بسؤاله :

– عايز كام ؟

فأجبت :

– مش عايز حاجة !

وانتهى كل شيء » .

ولكن الذى حدث مع الدكتور صبرى بعد سنوات طوال كان أعجب من العجب . فلم ينته كل شيء بينه وبين شوقى بعد أن غاب أمير الشعراء عن دنيانا ، بل إن عاشق شوقى حقق بعض ما كان يريده من تقديم أمير الشعراء للناس بأسلوب علمى .

فجمع شتات أعماله المجهولة . ولو قدر للأدب العربى الحديث ما يرفع شأنه ، ويعلى قدره بأمير شعره – لكان الدكتور صبرى السوربونى هو الذى يعيد طبع الشوقيات الكاملة .

ولكن العمل العظيم الذى قدمه السوربونى فى كتابه يمكننا من ذلك الأمل حين نفكر فى إعادة طبع الشوقيات الكاملة .

١٠ — الدكتور إبراهيم ناجى

يخيل إلىّ في بعض لحظات الصفاء أن (إبراهيم ناجى) كان يقتبس من عبقرية شوقى .

إحساس غريب !

لقد ألقى (ناجى) قصيدة على قبر شوقى قال فيها :

ماكنت إلا أمة ذهبت والـعـبـقـريـة أمـة الأمم
أو شعلة أبصارنا خلبت ومنارة نصبت على علم
أين النجوم أصنعْ كما أهوى شعراً كشعرك خالداً أبدا ؟
لكن حزنى لو علمت بهْ : لم يبق لى صبراً ولا جهدا

وعندما تغنت أم كلثوم بإحدى قصائد (ناجى) وهى قصيدة الأطلال أحسست أن روح شوقى ترفرف على الشعر والغناء .

إحساس غريب أيضاً !

نحن لانعلم أن هناك صداقة بين شوقى (وناجى) ، وكل ما وصل بينهما هو جماعة (أبوللو) الشعرية التى كان أمير الشعراء أول رئيس لها . وكان شوقى يجتمع دقائق معدودات وأعضاء الجمعية ، ثم ينصرف ، كما كان قليل الكلام ، بعيداً عن الجدل والمناقشة .

كان مثل الغزال الشارد أو الطير الهائم ، لايستقر فى مكان على حين كان الدكتور ناجى من أعاظم البوهيميين السارحين فى مجال الحسن والجمال !

كما كانت لأمير الشعراء رسميات فى المقابلات واللقاءات ، لأنه أمير : ولم يكن راضياً عن شعر التجديد الذى زعمته لنفسها جماعة أبوللو مع أنه رئيسها ، لأن الشعر عنده مثل قطع الماس الثمين تزيده السنون بريقاً ، ولا يجوز عنده أن يكون الشعر قطعاً من زجاج تشبه الماس وليس لها بريق .

وشوقى كان يملك قطعاً كثيرة من الماس الحر ، ويعرف قيمتها ، ولكن سوق الشعر فى عصره امتلأت بالماس المغشوش الذى ادعى أصحابه أنه جديد !

الكأس المعتقة لايعرف كيف يشربها إلا من يعرف الشراب .

وذات يوم قال صالح جودت - إن شوقى وصف البيرة فى قصيدته :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

فضحكت لأن شوقى كان يصف الشمبانيا ، ولم يكن يشرب البيرة . وكأس الشمبانيا لابد أن تكون من الكريستال الثمين ، وهو أغلى من الذهب ، والحبب فيها حبات ناصعات من الفضة والذهب ، وليس رغوة صابون مثل أكواب البيرة !

إن شعراء جماعة أبوللو الذين منحهم شوقى مسحة من عبقريته هم : إبراهيم ناجى وعلى محمود طه وصالح جودت وأحمد فتحى .

ولكن أمير الشعراء مسح على جبين ناجى فى لحظة من لحظات الرضا

كمايقولون ، فكان أشعرهم ، مع أنه اعتقد أن (خليل مطران) هو الذى يجدد الشعر معهم ، وقد انتخبوه رئيساً لجماعة أبوللو بعد وفاة شوقى .

وخليل مطران من أثقل الشعراء وزناً ، مع أنه كان ضئيل الوزن ، وقد ضاع شعره فى غيابات الزمان . ولو سألتنى لقلت لك : إن بشارة الخورى الأخطل الصغير كان أشعر من مطران ، وهو الذى غنى له محمد عبد الوهاب :

جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل
وحرقنا نفوسنا فى جحيم من القبل

وليس فى استطاعتك حين تسمع هذا الشعر إلا أن تقول :

– الله .. الله !

إن (عبد الرحمن شكرى) كبير شعراء التجديد فى الجيل الماضى له دواوين حمل بعير ، ولكن ماذا نتذكر له ؟ لاشىء ! ليس له بيت واحد يمكن أن نتذكره ، وهكذا خليل مطران ، وغيرهما من الشعراء الذين ملئوا الدنيا صياحاً فى عصر شوقى وحافظ .

لقد جنَتْ وحدة القصيدة على شعراء التجديد ؛ لأن الشعر العربى له خصائص لن تزول ، وأولها وحدة البيت ، وقد كان لشعراء الجاهلية مقطوعات فيها وحدة القصيدة ، ولكنها كانت على شروط الشعر العربى وأوزانه ، وألفاظه ، وأسراره الفنية التى جعلته فناً من فنون القول ، وليس فناً من فنون الكتابة .

استمع إلى مقطوعة هذا الشاعر الجاهلى (المنخل اليشكرى) التى يقول فيها :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترْ فل فى الدمقس وفى الحرير
ودفعتها فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست كتنفس الظبى الغرير

وأحبهــــــــــــا وتحبنى ويحب نـاقتهـا بعيرى

هذه هى وحدة القصيدة على شروط شعر العرب ، حتى تصبح أبياتها نغمة واحدة ولحناً واحداً ، وكأنها بيت واحد من الشعر.

لم يستطع شعراء التجديد أن يحكموا وحدة القصيدة مثل هذا الإحكام ، ولم يستطيعوا أن يكتبوا شعراً عربيًّا على نمط الشعر الأوربى فى وحدة قصيدته ، ولكن (طه حسين) كان يحرضهم على شوق ، ويتخذ من خصومته وسيلة من وسائل الشهرة ، كما فعل مع المنفلوطى من قبل ، فتعلق على أكتافه ليراه الناس !

حاول (ناجى) كتابة شعر يلتزم بوحدة القصيدة ، وكان أبدع ما كتب هو قصيدته الناى المحترق التى يقول فيها :

كم مرة ياحبيبى والليل يغشو البرايا
أهيم وحدى وما فى الظلام شاك سوايا
أصبّ الدمع لحناً وأجعل الشعر نايا
ما أتعس الناى بين المنى والمنايا !
أظل أطلب منه سلوى قبل صدايا
وهل يلبى حطام أشعلته بجــــــوايا
النار توغل فيه والريح تذرو البقايا
ما زال يشدو حزينا مرجعاً شــــــكوايا
مستعطفا من طرفيا على هـــــواه الطوايا
حتى سرى لى خيال عرفته فى صبــــايا
أدنو إليه وتدنو لثغــــــره شفتايا
إذا بحلم كذوب واستيقظت عينـــايا
ورحت أصغى وأصغى لم أُلفِ إلا صدايا

وأنت ترى أن هذه المقطوعة أقل قيمة من مقطوعة الشاعر الجاهلى المنخل اليشكرى حتى فى اختيار الألفاظ الموسيقية ، فهو يقول :

أصيّر الدمع لحناً   وأجعل الشعر نايا

ولفظة (أصير) أثقل من جبل المقطم ، ولو أحسن لقال :

أذوّب الدمع لحناً   وأجعل الشعر نايا

ولكن ناجى وغيره من الشعراء لم يتابعوا هذا اللون من الشعر ، وعادوا إلى الأصل فى كتابة القصائد ، والتزموا بوحدة البيت حين يجب الالتزام ، وأنت ترى أن الشعر العربى منذ الجاهلية لم يمنع وحدة القصيدة كما زعم الدكتور طه حسين ، وصدقناه خوفاً منه لأنه أستاذنا .

ولم يستطع شعراء التجديد فى الجيل الماضى كتابة شعر الملاحم ، والشاعر الوحيد الذى كتب ملحمة شعرية هو (أحمد شوقى) فى رائعته الخالدة (كبار الحوادث فى وادى النيل) وهى قصيدة :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء

إنها ملحمة على شروط الشعر العربى ، لا على شروط الشعر اليونانى ، وقد وصفها الدكتور هيكل فقال :

« هى رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ عهد الفراعنة إلى عهد أبناء (محمد على) وقف فيها الشاعر وقفة مصرى صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ ، أى منذ عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ » .

ولكن تحكم النقاد الذين أرادوا تطبيق مذاهب النقد الأوربى على الأدب العربى كان من العجائب وما زالوا من العجائب ، فهم يتحدثون عن إلياذة هوميروس فى شعر العرب ، ويبحثون عن الشعر القصصى فى شعر العرب ، ولا يدركون أن لكل أمة من الأمم لوناً من البناء المادى أو البناء الفنى .

هل قصيدة ت . س . اليوت التى سماها (الأرض الخراب) مثل إلياذة هوميروس ؟

هل مسرحيات شكسبير مثل مسرحيات يوروبيد ؟

إن مسرحيات جورج برنارد شو تختلف فى بنائها الفنى ومسرحيات شكسبير فلماذا تلزم الأدب العربى بمقاييس الأدب الأوربى ؟

ليست عالمية لون من الآداب فى عصر من العصور مما يلزم آداب الأمم الأخرى بالنزول عن تصويرها الفنى .

ولكن التجديد عندنا منذ الجيل الماضى حتى اليوم مازال يبحث عن الأشكال ، ولايبحث عن المضمون . وهذا هو أخطر الأخطار فى حياة الأمم والشعوب .

لقد عاد (إبراهيم ناجى) وغيره من أبناء مدرسة أبوللو إلى عمود الشعر العربى ، واستندوا عليه ، بعد أن تيقن الموهوبون منهم أن اختلاق التجديد الشكلى لا يجدى .

قال ناجى يصف شعر شوقى :

«إن أول مانصف به شعر شوقى أنه موسيقى فما معنى ذلك ؟ ذكرت إحدى الجرائد الفرنسية مقارنة بين شوقى وبول فاليرى شاعر فرنسا الأكبر فى العصر الحاضر ، فذكرت هذه الموسيقية ، وهى على حق : إن شوقى وبول فاليرى اتفقا فى هذه الصفة .

والموسيقية من حيث إنها تحتاج إلى اللفظ والصياغة – إنما هى إذنْ فى حاجة إلى الإلمام العظيم باللغة ، هذا إلى ذوق خاص لايمكن اكتسابه بسهولة ، وإلى أذن تحسن السماع وتمييز الأنغام .

ولكن إبراهيم ناجى شطح ونطح فى تفسير الخيال عند شوقى وغيره من الشعراء ، وتحدث عن الصور الشعرية ، وغير ذلك ، ثم زعم أن شوقى تميز بكثير

من صفات الشاعر الكامل .

والكمال لله وحده .

إن النظريات النقدية للشاعر (إبراهيم ناجى) لاقيمة لها إلا من ناحية تصوره لمفهوم الشعر الذى كان يحسن به أن يطبقه على نفسه .

إنه يقول عن حافظ إبراهيم : إنه شاعر انعدمت من شعره صور الخيال !

ويقول : إن مطران له قصائد منفردة منقطعة النظير فى الصور يرسمها وينقلها إلى الاذهان .

هذه كلها آراء جزافية ! ومما لاشك فيه أن ناجى تأثر بشوقى تأثراً شديداً من غير أن يشعر بذلك . وأكبر مثال على ذلك قصيدته (الأطلال) التى تغنيها أم كلثوم . ويسمعها الناس : فإنه فى بيت واحد منها كان من كبار الذين يترسمون خطوات أمير الشعراء .

أعطنى حريتى أطلق يديّا   إننى أعطيت ماستبقيت شيّا

بيت الشعر المفرد الذى يصبح حكمه أحد سمات شوقى الظاهرة . الأخطل الصغير سمع .

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

فقال :

جفنه علم الغزل   ومن العلم ما قتل !

ليس هو الوزن المعروف فى الشعر ، ولكنها النغمة والموسيقى التى تحدث عنها (ناجى) . وقد كان شوقى من كبار الموسيقيين ، ويكفى أن تلميذه هو محمد عبد الوهاب .

أبو القاسم الشابى حين قال :

إذا الشعب يوما أراد الحياة   فلابد أن يستجيب القدرْ

ولابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر

كانت قد وصلته فى تونس مسحة من عبقرية شوقى ، ولقد كان الشابى عضواً فى جماعة (أبوللو) التى تزعمها شوقى .

أما إبراهيم ناجى فقد وصف شوقى فى قصيدة عنوانها (هدية السماء) وقال فيها :

ومنعم بين القصور قد استتم له الثراء
ما باله حمل الهمو م وجشم القلب العناء ؟
وينوء بالعبء الذى هو عن أذاه فى غناء !
ويح الذكاء وما يكلفه من الثمن الذكاء
أضنى قواه ولم يرع من جسمه إلا ذماء
والمجد يوغل فى حنا يا روحه والمجد داء

كان ناجى يؤمن بعبقرية شوقى برغم كل ما قاله عنه ، ويبدو أن موضة العصر كانت تتسم بمهاجمة شوقى ولو من بعيد ، حتى بعد موته !

١١ - محمد عبد الوهاب

بعد أربعين يوما من نهاية الرحلة التى غنى فيها الشاعر العبقرى أعذب الألحان ، رفع الستار عن مجموعة كبيرة من الموسيقيين والمغنين يتوسطهم الموسيقار الفنان (محمد عبد الوهاب) واهتزت الأوتار بنغم من أنغام (الصبا) الشجى الحزين ، ثم علا صوته ينشج ويتهدج .

كان صوت عبد الوهاب يغنى هذه الكلمات :

خـــــطـــــمـوا الأقـــــداح
مثل ماحطَمت حزناً قدحى
ودعـوا الأفـــــــــــــــراح
طوى اليـوم بساط الفرح
مـــــات خير الشـــعـــراء

فأبك ياقلبى فذا وقت البكاء

* * *

خلدوا ذكراه فى كل القلوب

خلدوهـا

مجدوا ذكـراه شـبـانـاً وشـيـب

مجدوهـا

لن تردوا بعض ما أسدى لكم

أبــداً ، مــهما فــعــلتم أبــدا

* * *

إن دمعى يتكلم

فــــاسمعونى

إن قلبى يتحطم

فــــاعــــذرونى

* * *

مات خيرُ الشعراء

فــــابك ياقلبى

فذا وقت البكاء

* * *

كانت هذه الكلمات التى غناها أو بكاها (محمد عبد الوهاب) تتردد على مسرح حديقة الأزبكية فى أربعين شوقى .

ومحمد عبد الوهاب تلميذ شوقى بلا منازع ، وهو يذكره دائماً كلما تحدث . .

ولكننى أذكر عبد الوهاب هذه الأبيات التى لا أعرف قائلها وأعرف أن

عبد الوهاب بكاها . . لا غناها . .

لقد شاعت فى مصر قصة أمير الشعراء الفنان الذى ضم إليه فناناً حبيباً اسمه محمد عبد الوهاب وكتب شيخ العروبة (أحمد زكى باشا) كلمات عن هذه القصة الرائعة التى جمعت بين نغم الشعر ونغم الموسيقى ، فقال :

«الآية التى جاء بها شوقى للشرق وللفن فى حالة وجوده ، والتى مازال ينفخ فيها الحياة بعد وفاته ، فهى الناطقة ببرهان الألحان ، الماثلة للعيان بألوان الأنغام فى شخص محمد عبد الوهاب !

نظر شوقى بنور الله إلى النبوغ الكامن فى حنجرة هذا المراهق الناشئ ، فاستخلصه لنفسه ، وقربه من صحبه ، ثم أفاض عليه سجال الثروة حسًّا ومعنى ، ونفث فيه سحر الشعر ، وصاغ لنفسه جواهر القول ، حتى طلع علينا بذاك الصوت الباهر الساحر ، وأصبح له ذياك الصيت النادر الطائر ، فكان عبد الوهاب وتبارك الله !

وكان له يد فى تهذيب الرنين الموسيقى فى تلك النفحات الشوقية فكان شأنهما معاً فى هذا المجال — وفى هذا المجال وحده — كالبحر يمطره السحاب»

ثم تحدث شيخ العروبة عن الحفل الذى حدثتك عنه ، وهو الحفل الذى بكى فيه عبد الوهاب ليلة الأربعين بعد ذهاب شوقى ، وقال عن الحفلة :

«تمثل الوفاء بما ترضاه محامد الأخلاق ، وفيها رأيت العجب العجاب»

ووصف أحمد زكى باشا حفلة عبد الوهاب بأسلوب عصره فقال :

«هل أتاكم حديث آلات الطرب ؟ إن الأوتار المشدودة والمعادن المطروقة والمسبوكة والمصبوبة والعيدان المنشورة والمربوطة والمشقوقة — كانت كلها فى اتساق واتزان وفى تناسب وتجانس وهندام تترنم ، ثم تتكلم .. ثم تترحم ! وبين الاهات والنبرات زفير يترجم عن الأنين إلى شهيق يعبر عن البكاء الذي يبعث البكاء

ولكن . كانت الأبصار شاخصة والقلوب واجفةً ، والألسن منعقدة والرءوس مطرقة .

كل ذلك السكون التام وكل ذلك السكون العميق لئلا تنفر الملائكة التى تنزلت من سماوات العلا ، واستقرت كأنها الطير على تلك الرءوس ! فلم تكن تسمع للقوم ركزاً ولاهمساً ، ولاتكاد تصدق أن فيهم حركة أو حساً .. إلى أن انتهى التلحين الحزين ، ومن العجب أن إنساناً واحداً لم يسمح لنفسه بالتصدية والتصفيق ! فقد تمادى الناس على حبس الأيدى والأنفاس خوفاً من التشويش على مابقى من أثر ذلك الترتيل فى التسبيح الذى أنزله الله على قلوب من جنات الفراديس »

كانوا فى عصر شوقى يقولون : إنه ولد ليكون موسيقاراً فصار شاعراً ، ولكنهم لم يدركوا أن الشعر هو الموسيقى ، وأن الموسيقى هى الشعر ، لأنهم عاشوا أكثر من ألف سنة مع الذين ينظمون الشعر ولايعرفون الموسيقى .

ومحمد عبد الوهاب شاعر لأنه موسيقى ، ولولا شاعريته ما استطاع أن يصل إلى انغامه وألحانه .

والشىء الوحيد الذى جمع بين شوقى وعبد الوهاب هو النغم أو هو الشعر .

لاشعر بغير نغم . ولا نغم بغير شعر .

هذه هى القضية .

وما الذى جمع بين (شيللر) و (بيتهوفن) فى بيت (يوهان جوته) فى مدينة فايمار ؟

قصيدة (شيللر) التى سماها السعادة أنطقها (بيتهوفن) فى السيمفونية التاسعة بعد أن سمعها من الشاعر ، ثم نطق بها اللحن بعد عشرين عاماً .

كان للشاعر (شيللر) كرسى فى بيت (جوته) وكان للموسيقار (بيتهوفن) بيانو

فى بيت (جوته) ولم يكن أحد يجرؤ على الجلوس فوق كرسى (شيللر) ولم يكن أحد يجرؤ على العزف بأصابع بيانو (بيتهوفن)

هذا هو الفن.

وكان لمحمد عبد الوهاب مكان فى بيت (شوقى) ومكان فى قلب (شوقى). ولكن أمير الشعراء لم يكن جديداً فى فن الغناء والموسيقى، بل إنه ألف مقطوعات لعبده الحامولى، وعندما افتتح معهد الموسيقى الشرقى كتب قصيدة ألقاها فى حفلة الافتتاح الشاعر على الجارم، لأن أمير الشعراء كان لايلقى قصائده. بل يترك إلقاءها للآخرين.

ويقول شوقى فى هذه القصيدة:

لولا ابتسام الفن فيما حوله ظل الوجود جهامة وجفاء
جرد من الفن الحياة وماحوت تجد الحياة من الجمال خلاء!

ولكن أمير الشعراء الذى كتب أعذب الأغنيات لعبده الحامولى وغيره من كبار المطربين لم يأنس لصاحب أنغام كما أنس لمحمد عبد الوهاب وسبحان الوهاب.

يقول محمد عبد الوهاب: إنه من حفدة (عبد الوهاب الشعرانى) وقد يكون هذا هو سبب الأنس الذى لايفهمه بعض الناس، لأن الشعرانى كان من أصحاب الأنس والبهجة والحبور والسرور فى الوصول إلى المحبة والحب.

وكان (شوقى) من الواصلين، كما أن (عبد الوهاب) من الواصلين، والوصول ليس صعباً فى طريق العارفين.

أنا لا أريد أن أبتعد بك كثيراً عن إلهامات (شوقى) لمحمد عبد الوهاب، ولكننى أقول لك: إن الفن إلهام، وسبحان من يلهم فتسمع أو تقترب من السماع. وشوقى كان شاعراً يأتى إليه الإلهام من السماع، فيلهم به قلبه، ثم يلهم به من أراد أن يسمع الإلهام.

وسمع عبد الوهاب .

وقال أمير الشعراء لمحمد عبد الوهاب : « غرد عبد الوهاب »

« غرد يا كنارى الناى ، واصدح ياهزار الوادى واحْدُ الركاب وهزّها ياحادى .
أهذا يابلبل الناى تغريد ، أم هذا وسواس الحلى على الخُرّد الغيد .
وجرجرة الوشى من الهيف الرعاديد ؟
أم هذا همس الجداول فى سمع الأماليد ؟

غن من الكبد أحيانا
ومن القلب أحيانا
وقل عاطفة ووجدانا
غن
تر العشاق كيف يبكون ؟
وحملة الأشواق مم يشكون ؟
وتر الممثلين كيف يمثلون ويحكون ؟

آمنت ببيان الحناجر ، وباللحن الساحر ، والعصب الشاعر ، وشهدت أن وتراً يخلقه الله يشدّ به اللسان إلى اللهاة لايصنع الإنسان له مثيلاً وإن ألفيتهم صنعوا جليلاً ، وسموا صنعهم فنًّا جميلاً .

وقد وهب الله لك عبد الوهاب أندى الحناجر ، وخلق لها ألينَ الأوتار ، وخلق منها أرخم الأصوات ودلك على الصوت تنشره وتطويه ، وتميته ثم تحييه وتقلبه ثم تنظر فيه ، كأنما صوتك فى يدك ، وكل مغن صوته فى فيه » .

وهذا النص الأدبى الذى كتبه شوقى لمحمد عبد الوهاب ، لم يكتب نص مثله فى آداب العرب لصاحب غناء وطرب .

وكما طالت الألسنة على شوقى طالت على عبد الوهاب ، فاتهموه بالسرقة من

موسيقى (بيتهوفن) أو (شوبان) ، كما اتهموا (شوقى) بأن الذى يكتب له الشعر إنما هو الشيخ (زكى سند) مؤسس (جماعة مكارم الأخلاق) . وكان مدرساً فى مدرسة اليسوعيين ، وهو جار من جيران شوقى عندما كان فى بداية شبابه يعيش فى حى عابدين مع والده وأسرته .

ثم مات الشيخ (زكى سند) وبقيت شاعرية شوقى وعبقريته ، وقدرته اللغوية الفائقة فى نسج الكلمات الذهبية .

ونحن لانعلم شيئاً عن الشيخ (زكى سند) ، ولكن عبد الوهاب المسكين متهم فى بيتهوفن وشوبان وهما من أعلام الموسيقى فى العالم .

وقد تعلم عبد الوهاب من شوقى درساً فى الفن لا أعتقد أنه يستطيع أن ينساه .

كان عبد الوهاب مع شوقى فى لبنان ، وقد تقرر أن يقيم حفلة غنائية ، وفجأة جاءته الصدمة حين قرأ فى إحدى الصحف المصرية التى وصلت إلى لبنان خبرا هز كيانه ، وهو خبر وفاة والده ، وأراد أن يعود إلى مصر فوراً ويلغى كل حفلاته فى لبنان .

وحاول شوقى أن يهدئ الموسيقار الشاب الذى صنعه بيديه فعجز ، وكان (طه حسين) يصطاف فى لبنان فاقترح (شوقى) على (محمد عبد الوهاب) أن يذهبا معاً لزيارة (طه حسين) ، ليعرفا رأيه فى المشكلة ؛ وتم لقاء الثلاثة الكبار ، وقال (طه حسين) كلمات عن واجبات الفنان ، أقنعت (محمد عبد الوهاب) وقال : إنه سيبقى فى لبنان ليؤدى واجبه كفنان ، ولكن بقيت المشكلة .. ماذا يغنى ؟

وكان الحل فى يد شوقى أمير الشعراء ؛ لأن عبد الوهاب لن يغنى أغانيه المطربة .

ثم جاء الإلهام الذى حدثتك عنه ، وكتب شوقى بداية الكلمات :

الليل بدموعه جانى ياحمام نوح ويايه

نوح واشرح اشجانى . ده جواك من جنس جوايه

أنا قلت لك : إن شوقى كان واصلاً ، وهو يتحدث الآن معك عن الجوانية .

(ده جواك من جنس جوايه)

ثم أكمل أمير الشعراء الكلمات الباكية ليغنى محمد عبد الوهاب :

الشوق هاجك من نوحك وشكيت الوجد معايه

أبكى بالدمع لنواحك وتنوح ياحمام لبكايه

* * *

بعد الأحباب لوعنا والصبر دواك ودوايه

مسير الأيام تجمعنا إن كان فى الصبر بقايه

* * *

إن لقيت عندى من حبى سلطان العشق هوايه

أنا خدت الدمع من قلبى .واكتم فى القلب أسايه

* * *

وغنى عبد الوهاب هذه الأغنية الحزينة الباكية ليسعد الناس ، ثم بكى ، وأبكى الناس وتلقى التهنئة والتعزية فى وقت واحد .

إن قصة شوقى وعبد الوهاب لاتنتهى ، ويبدو أنها ليست لها نهاية .

إنها تشبه قصة (جوته) مع (بيتهوفن) .. وهى قصة الشاعر والموسيقار ، وكلاهما فنان ، مهما اختلف الزمان .

ماذا يحدث لو أن أمير الشعراء كان يعيش بيننا اليوم ،

ويلتقى بفنه العبقرى والعبقرىُّ الآخر محمد عبد الوهاب

هل كان شوقى يكتب الكلمات نفسها ؟

هل كان عبد الوهاب ينغم النغمات نفسها ؟

لست اعتقد ..

ولكن لقاء العبقرية لايتم إلا مرة واحدة فى كل جيل .. وقد تم فى مصر بين الشاعر الشامخ الذى كتب حروف الذهب ، وبين المراهق الناشىء الذى يدغدغ الألحان ، وكان هو اللقاء الذى صنع الموسيقى .

ولم يكن بين شعراء العربية من يترنم ويغنى ويفتن بالكلمة أعظم من شاعرين هما : أبو الطيب المتنبى وأحمد شوقى .

العرب يملكون آلاف الشعراء والشعر ديوان العرب .. ولكن هذا الديوان لم يكتب حروفه الذهبية غير المتنبى وشوقى ، أما الحروف الأخرى فإنها من فضة أو حديد ، أو منحوتة فى صخر ، وبعضها حبات رمال فوق صحراء !

المعلقات التى خلدت أسماء الجاهليين ليست من حروف الذهب !

الدواوين الخالدة فى تاريخ الأدب العربى ليس فيها حرف واحد من ذهب ، ولكن شوقى هو الذى كتب حروف الذهب ، كما كتبها الشاعر الآخر الأكبر أبو الطيب المتنبى . شوقى هو الذى جعل الشعر كلمة يتغنى بها الناس فى الشوارع .

وأى كلمة ؟

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

شوقى .. شاعر العربية الأكبر

وهو الذى كتب باللهجة المصرية العامية ، وعلّم الشعراء كيف يكتبون بهذه اللهجة ؛ فلم يعرف السر غير واحد لايتكرر هو (بيرم التونسى) لأنه تعلم أسرار العربية قبل أن يكتب حروفاً بلهجة المصريين ، وهى عربية تأخذ بلاغتها وفصاحتها من بلاغة العربية وفصاحتها .

التحدى الذى قدمه شوقى حين كتب باللهجة المصرية ، هو تأكيد صفة الشاعر وحقيقة الشاعر .

وأنا أقدم إليك قصيدة شوقية كتبها باللهجة المصرية العامية ، لترى كيف كان يكتب حروف الذهب :

بلبل حيران على الغصون	شجى معنى بالورد هايم
فى الدوح سهران من الشجون	بكى وغنى والورد نايم
سكران بغير الكاس	فى مجلس الورد
من عنبر الأنفاس	ومنظر الخد
يبص فوقه ، ويبص تحته	ويمد طوقه ويشم ريحته
فنن يحطّه وفنن يشيل	وجناح يقوم به وجناح يميل
فى إيد الليل يلعب به	ووراه الويل ياقلبه
مجروح من ساقه ومن طوقه	مادرى بالشوق من شوقه
من دوح لدوح سهر ونوح	ياليل ده طير بدنْ وروح
من فرع غصنه ع الورد مال	وراح يمين وجهْ شمال
قال له : ياسوسن ياتمرحنة	ياورد أحسن من ورد خنة !
مين بالفرح لونك مين ؟	ومن الشفق كونك مين ؟
ياريحة الحبايب ياخد الملاح	لشوكة جمالك وضعت السلاح !
تبارك اللى خلق ظلك من الخفة !	واللى كساك الورق ولفه دى اللفة
زى القبل ولفّه شفة على شفةْ	ياورد فوق ، لاالجناح ينهض ولاالجرح يرقى
تشوفنى وقت الصباح	جسد على الأرض ملقى
أموت شهيد الجراح	ويعيش جمالك ويبقى

وقد غنى عبد الوهاب بعض أبيات القصيدة ، وأنت ترى أن ألفاظ القصيدة فى جملتها ليست عامية ، ولكنها مكتوبة باللهجة المصرية ، وهى أقرب اللهجات إلى الفصحى .

ولم يكن شوقى يكتب باللهجة السوقية . فى أغانيه العامية ولكنه كان يقترب دائماً من الفصحى ، وكان يقول :

– لست أخشى على الشعر العربى إلا من زجل بيرم التونسى .

ولكن (شوقى) كتب العامية ، فهل أصبحت أغانيه خطراً على الشعر العربى وهو أميره وكبيره ؟

إن أهم ما كتبه شوقى لمحمد عبد الوهاب بالعامية هى أغانيه الأربع المشهورة :

* بلبل حيران
* النيل نجاشى
* فى الليل لما خلى
* اللى يحب الجمال

وعندما سمع (بيرم التونسى) أغنية (محمد عبد الوهاب) النيل نجاشى ، كتب زجلاً شهيراً قال فى مطلعه متوجهاً بالحديث إلى أمير الشعراء صاحب الأغنية :

يا أمير الشعراء غيرك فى الزجل : أصبح أميرك

وكان شوقى يحب فى بعض الأحيان كتابة الشعر العامى ، ويتلذذ بذلك ، وقد كتب لعبده الحامولى دور :

يا ما انت واحشنى وروحى فيك يامآنس قلبى لمين أشكيك ؟

أشكيك للى قادر يهديك

كما أنه كتب لمحمد عبد الوهاب أول أغنية بالعامية ، وهى أغنية :

شكيت قلبى ياعينى شوقى بقى مين يحله

النوم بينك وبينى إمتى يجينى وأقول له

ولكن قصة كتابة شعر العامية لم تبدأ عند شوقى ، ولكنها بدأت عند أستاذه شيخ الشعراء (اسماعيل باشا صبرى) ، وهو الشاعر الذى نسيه الناس ، مع أنه

كان حلقة الاتصال بين (محمود سامى البارودى وبين أحمد شوقى) .

البارودى رفض تأليف الأغانى لعبده الحامولى عندما كان عبده المطرب الخاص للخديو وقد حفيت أقدام (سى عبده) حتى يكتب له البارودى كلمة يغنيها . ولكن الشاعر الفارس الأرستقراطى ابن السلاطين استنكر أن يذكر اسمه على ألسنة المغنواتية . وظل يقول الشعر الفصيح ويجدده .

والأمر العجيب الغريب هو أن البارودى كان سبب دخول الشعراء الكبار فى مجالات الغناء العامى الشعبى : فقد حضر فى مجلسه بعد عودته من منفاه إلى بيته فى باب الخلق الشاعر (إسماعيل صبرى) والمطرب (محمد عثمان) وقال الباشا :

– لماذا لاتكتبون كلاماً فى مهاجمة الإنجليز الذين يحتلون بلادنا ؟

وأحس إسماعيل صبرى بأن الكلام يوجه إليه . فقال :

أنا أكتب الكلام .. ولكن من يغنى الكلام ؟

ورد عليه البارودى قائلاً :

– يغنيه محمد عثمان

وكتب إسماعيل صبرى الكلمات التى مازلنا نسمعها حتى اليوم ، ولايعرف كثيرون لماذا كتبت ؟

كانت كلمات الشاعر إسماعيل صبرى تقول :

عشـنا وشـفـنا سنين ومن عاش يشوف العجب
شربـنا الضنى والأنين جعلـناه لروحنا طربْ
وغيرنـــا تملّك وصــال واحـنا نصيبنا خيال
كدا العدل يامنصفين ؟

وقد غنى عبده الحامولى هذا الدور بعد أن لحنه محمد عثمان .

وكان الشاعر (إسماعيل باشا صبرى) هو الذى فتح الباب ، فكتب أعذب

الأغنيات المصرية الحديثة ومنها أغنية :

الحلو لما انعطف أخجل جميع الغصون
والخد – آه – ما إنقطف ، ورده بغير العيون
لما بدا لى الحبيب يشبه لبدر التمام
صار الفؤاد فى لهيب فى الحال وهام بالقوام
ارحم ياسيد الملاح مغرم ضناه البعاد
دمعه على الخد ساح فى حر نار الفؤاد
الحب حاله عجبْ يلذ فيه العذابْ
ذكر الحبيب فيه طربْ ودمع عينه شرابْ

وكانت أشهر أغانى (إسماعيل باشا صبرى) فى زمانه الأغنية التى ترنم بها (محمد عثمان) وهى التى يقول فيها :

قدك أمير الأغصان من غير مكابر
وورد خدك سلطان على الأزاهر
والحب كله أشجان ياقلب حاذر
والصد ويا الهجران جزا المخاطر
ياقلب أدى أنت حبيت ورجعت تندم
صبحت تشكى مالاقيت لك حد يرحم
صدقت قولى ورئيتْ ذل المتيم
ياما نصحتك ونهيت لو كنت تفهم

ويبدو أن (إسماعيل باشا صبرى) هو الذى فتح الباب لأحمد شوقى حتى يدخل ويكتب بالعامية المصرية على طريقة أستاذه الكبير ، وأنت تلاحظ أن (صبرى باشا) لم يكن يكتب بلهجة السوقة ، أو ينزل إلى مستوى الزجالين ،

ولكنه كان يكتب أغانيه باللغة الراقية وينظمها وينغمها وكأنها شعر فصيح ، ولم يبعدها عن هذا اللون من الشعر غير حركات الإعراب فى أغلب أبياتها .

ويبدو لى أن المصريين هم الذين تسببوا فى ضياع حركات الإعراب من اللغة العربية . وجعلوا أواخر الكلمات ساكنة بلا حركة ، مع أنهم كانوا أكثر الشعوب العربية احتفاظاً بألفاظ العربية فى لهجتهم ، وهذا موضوع آخر لا أريد أن أشغلك به ، ولكننى سأكتب لك عنه ، وهو موضوع خطير ألف فيه بعض العلماء كتباً ، ولكننا نبحث من حوله ؛ لنعرف كيف قال الشعراء كلمات ناصعة نزعم أنها عامية وهى عربية ؟

المهم بعد ذلك هو أن (شوقى) سار على طريق شيخه وأستاذه (إسماعيل باشا صبرى) فى كتابة الشعر باللهجة المصرية ، وكان يريد بذلك ما أراده شيخ الشعراء فى العصر الحديث من وصول الكلمة إلى الجماهير عن طريق الغناء ، وهو الفن الأعظم عند العرب قبل ظهور فن المسرح الحديث وانتشاره .

وكانت طريقة (شوقى) فى تأليف الأغانى تشبه طريقة (إسماعيل صبرى) فى الشكل والمضمون .

* الشاعر لايمكن أن يكون زجالاً .

ونحن اليوم لانفرق بين الشاعر والزجال ؛ لأننا فقدنا أصول الفن الشعرى ، ولم نستطع التفريق بين الكلمة الشاعرة ، والكلمة السوقية المنحدرة .

إن (أحمد شوقى) هو الذى استطاع بموهبته وعبقريته وضع الحد الفاصل بين الشاعرية والسوقية .

وأنت تسألنى الآن عن هذا الفارق ، وهو دقيق رقيق يشبه الشعرة التى تفرق بين الحق والباطل ، أو بين الخير والشر .

إن ماترتبط به آداب العامية ، وهى آداب سوقية فى الغالب – لايصور غير

الصور البعيدة عن الشاعرية ، وأنت ترى ذلك فى نصوص الآداب الشعبية ، مثل قولهم :

يا أبو زعيزع قوم صلى   وخلى مراتك تقلى

أو فى قولهم :

الطشت قال لى

وأنت لن تجد فى نصوص الأدب الشعبى صوراً شاعرية مثل الصور التى كتبها الشعراء الكبار ، وسبب ذلك هو أن الذين ألفوا هذه النصوص – وهم عند كل الشعوب من المجهولين المغمورين – لم تكن عندهم غير القدرة المباغتة على استرضاء الجماهير. لا القدرة القادرة على تصوير المشاعر والأحاسيس .

وأنا لست من المهاجمين للآداب الشعبية أو الرافضين لها ، ولكننى أريد لها أن توضع فى مكانها الصحيح بين الآداب .

كان رأى (طه حسين) مثل رأى (أحمد شوقى) فى الأدب المكتوب باللهجة العامية المصرية ، وكان يقول : إنه يخشى على الفصحى من كتابات (بيرم التونسى) .

ولكن السؤال الحائر مازال فى حاجة إلى جواب .

لماذا كتب أمير الشعراء باللهجة العامية المصرية ؟

إن أعظم الشعر الغنائى لشوقى كان بالفصحى ، وعندما سألته أم كلثوم أن يكتب لها شعراً تغنيه – كتب لها قصيدته الذائعة التى رفضت أم كلثوم غناءها فى حياة شوقى ، وغنتها بعد موته ، وهى قصيدة :

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها   واستخبروا الراح هل مست ثناياها ؟

وكان شوقى يقول :

– لو كانت الأصوات معادن لكان صوت أم كلثوم من الذهب الإبريز .

ولكن أم كلثوم رفضت غناء القصيدة ؛ لأنها اعتقدت (أن شوقى) يريد أن يذكرها بأنها رفضت أن تشرب معه كأساً .

وكان شوقى الفنان من أسعد المعجبين بالفنانة ملك ، وألف لها الأغنية الذائعة :

ياحلوة الوعد مانساك ميعادى
عن الهوى ، أم كلام الشامت العادى ؟
كيف انخدعت بحسادى وما نقلوا ؟
أنت التى خلقت عيناك حسادى
طرفى وطرفك كانا فى الهوى سبباً
عند اللقاء . ولكن طرفك البادى

ويقول الرواة : إن (أحمد شوقى) كان من عشاق (ملك) ، وكان عشقه لها من ألوان العشق العذرى الرائع ، فكان يذهب إليها كل صباح ليصطبح بوجهها الصبوح ، ويشرب عندها فنجانة من القهوة ، ويقبل خديها ، ويقول لها كلمات الهوى ، ثم ينصرف .

ولكن (شوقى) كتب للمطربة المعروفة (ملك) شعراً فصيحاً ، من أروع أشعاره وكتب لأم كلثوم قصيدته التى ذكرتها لك ، وهى قصيدة :

(سلو كئوس الطلا هل لامست فاها ؟)

ولكنه كتب لمحمد عبد الوهاب شعراً بالعامية إلى جانب أشعاره الفصيحة ، وأشهرها قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى مايشبه الأحلام من ذكراك

وهى قصيدة جرت على لسان الشاعر فى لحظات الهوى ، ولم يكتبها ليغنيها عبد الوهاب ، ولكنه استلهمها أو ألهمت له عندما كان فى (زحلة) يصطاف فى

لبنان فرآها ثم ألهبت شاعريته فقال قصيدته .

هناك سببان فى أن (شوقى) شاعر العربية الأكبر كتب باللهجة المصرية العامية شعراً غناه مشاهير المطربين :

السبب الأول هو أنه كان من تلاميذ شيخ الشعراء (إسماعيل باشا صبرى) الذى حرر الأغنية المصرية من السقوط والتهافت ومن نغمة (أمان ياللالّلى) إلى نغمة :

الحلو لما انعطف أخجل جميع الغصون

والسبب الآخر هو (محمد عبد الوهاب) الذى أراد (شوقى) أن يجعله مطرب الشرق وبلبل الشرق ، فكتب له بالعامية حتى يقربه من الجماهير الشعبية ويحبب فيه العامة ، ولكنه منحه القيمة العظمى فى الفن ، وهى القصائد الرائعة الخالدة التى حولت فن الغناء المصرى والعربى من السوقية إلى السمو والارتفاع .

يكفى أن عبد الوهاب صاغ أعظم ألحانه فى قصيدة :

يـــا جـــارة الـوادى

ويكفى أن عبد الوهاب وضع أساس الموسيقى الأوبرالية فى مقطوعات (مجنون ليلى)

هل يتعلم الفنانون كيف يصوغون ألحاناً لروايات شوقى مثل ألحان (مجنون ليلى) حتى تصبح المسرحية الخالدة من الأوبرات العالمية ؟

ولكننى أقول لك : إن (شوقى) كتب بالعامية شعراً غنائيًّا ؛ لأنه أراد أن يقدم للناس شعره الفصيح الذى نتغنى به اليوم وستتغنى به غداً ، وبعد غد .

١٢ – المــرأة

كان المتنبي أول شاعر عربي حير الناس ، ثم جاء شوقي فحيرهم أيضا . وقد شغل هذان الشاعران الدنيا من حولها ومازالا يشغلانها .

المتنبي لم يتحدث عن زوجته ، ولم يذكر اسم حبيبةٍ أو عشيقةٍ . وهكذا كان شوقي . وقد عصر الباحثون شعر المتنبي عصراً للبحث عن حبيبته ، واعتقد بعضهم أنه كان يحب (خولة) أخت سيف الدولة ، وأن أبا فراس ابن عمها كان يمقته لذلك . وقد نفى (طه حسين) هذا الحب على حين أيده آخرون . واستندوا إلى قصيدة المتنبي فى رثاء خولة فذكرها فى واحد وثلاثين بيتاً من الشعر ، كما يستدلون على هذا الحب بمحاولة اغتيال المتنبي فى حلب ، قبل هروبه إلى مصر ، وقد ماتت خولة بعد رحلته إلى مصر وعودته إلى العراق ، وانقطاع أسبابه مع سيف الدولة .

وهذا الجهد فى البحث عن غرام المتنبي ، يدلنا على أنه كان شاعراً بلا عشق ،

وأن أشعاره الغزلية كانت أشعاراً تقليدية ، أو وصفاً لبعض لحظات الهوى الطارئ في تجارب، خاطفة لم تدخل قلب الشاعر مثل قوله :

وكان أطيب من سيفي مضاجعة   أشباه رونقه الغيد الأماليد

وشعر الغزل عند المتنبي قليل ، وليس فيه دلالات على العشق الحار ، أو الهوى الجارف . وقد أحس (طه حسين) بهذه الحقيقة ، وهو أستاذ وناقد يدرك أحاسيس الشعراء ويدخل في عواطفهم ، ويحلل مشاعرهم . وكانت أذنه مثل الجهاز الإلكتروني الذي يلتقط ويحلل ، وهو إحدى عجائب الزمان التي لايجود بها الزمان .

لم يكن ناقداً مدرسيًّا يبحث داخل الألفاظ والمعاني ، ولكنه كان فناناً يتسلل داخل عواطف الشعراء وأحاسيسهم . وكان يملك كل أدوات الناقد من المعرفة بالتاريخ واللغة والآداب والفنون ، ولعله كان آخر من قيل فيهم : إنه يلم من كل علم بطرف ، وهو تعريف الأديب القادر عند القدماء .

لقد عجبت ذات يوم عندما جاء طه حسين إلى الرقابة على الأفلام السينمائية بوزارة الداخلية ، وكنت مسئولاً عنها في تلك الأيام باعتباره الحكم في موضوع فيلم سينمائي حدث حوله خلاف بين التصريح والمنع . وجلس في قاعة العرض وشاهد الفيلم بأذنيه لابعينيه ؛ لأنه مكفوف ؛ وكان لابد لنا من قبول حكمه ؛ لأنه القاضي الأكبر في الفنون ، وهو في الوقت نفسه أستاذي .. وحكمه على العين والرأس .

كان الفيلم فرنسياً ، وهو مأخوذ عن بعض قصص (جي دي موباسان) ، وقد أيد طه حسين رأي المنع بسبب مشاهد صامتة في الفيلم تصور دخول شيخين عجوزين يتوكأان على العصا إلى بيت من بيوت الدعارة في باريس . واشتد عجبي عندما سألني طه حسين عما يفعل الرجلان ، وكان هو قد استنتج صورة المشهد

السينمائى بذكائه الخارق . وبمعرفته للأدب الفرنسى . وكان الذى قاله (طه حسين) هو ما صوره المخرج فى هذا المشهد .

سبحانك ياربى !

ومن عجائب (طه حسين) أنه كان يلقى علينا محاضرات عن النقائض بين جرير والفرزدق ، وهى قصائد الهجاء الشهيرة فى الأدب العربى . وكنا نعتقد أن جريراً يقول قصيدة فيرد عليه الفرزدق بقصيدة ، ولكن هذا العبقرى الجالس على مقعد من الخيزران الرخيص ، وأمامه منضدة خشبية لاتساوى نصف جنيه كان يفرك كفيه ، والبسمة على شفتيه ، وهو فى زيه الأنيق الجميل الذى يرسم لك صورة فنان . ويحببك فى الحياة .

وقال (طه حسين) إن جريراً كان يقول بيتاً واحداً ثم يرد عليه الفرزدق ببيت واحد . وطلب منا أن نحصى عدد الأبيات فى كل نقيضة من النقائض ، وكان العدد متساوياً ، فانقلب ميزان النقد ، وبدأنا ننظر إلى نقائض جرير والفرزدق نظرة أخرى ، ونحللها بيتاً من الشعر لبيت مقابل له .

واأسفاه ! ضاعت من أيدينا أثمن درر طه حسين ، لأننا لم نسجل محاضراته التى ألقاها علينا فى كلية الآداب . ولوكانت أجهزة التسجيل قد اخترعت لوصلنا إلى ما نريد ، ولكننا لم نكن نكتب ما يقول فى الكراسات ، وكيف كان فى استطاعتنا أن نلاحقه ، وهو مثل النهر المتدفق الذى يجتاز كل الصخور والشلالات !

الكلمة المنغمة التى تأسرك ، والفكرة الناصعة التى تخلبك ، والأستاذ الذى لاتسمع فى أثناء كلامه همساً ، بل إنك تكتم أنفاسك لتسمع مايقول .. وسامعوه فتيات فى مثل سننا لايبلغن العشرين ، وشيوخ زائرون شابت نواصيهم .

قال طه حسين : إن المتنبي لم يعشق خولة أخت سيف الدولة . ولا هي عشقته ؛ لأنه كما قلت لك كان يسمع شعر المتنبي بهذه الأذن الإلكترونية التي تحلل ماوراء الشعر من عواطف الشاعر . وهذا لون من النقد يعتمد على العبقرية الفنية . ولا يعتمد على الأساليب المدرسية فى النقد . والبحث عن كلمة هنا أو كلمة هناك قد تنم عن هذا العشق .

وكان (طه حسين) هو الذى أنشأ كرسى الأدب المصرى الحديث فى كلية الآداب ، وسماه باسم (أحمد شوقى) ، وهو الذى خالف (شوقى) ونقده وأسرف فى نقده لأسباب شخصية . بل إنه أعلن على الملأ مبايعته لعباس محمود العقاد أميراً للشعراء .

لعن الله السياسة التى جعلت عبقرياً مثل (طه حسين) ، يقول كلاماً لايعتقده وهذه هى آفة السياسة ، ولكنها ليست جديدة عندنا ، فهى آفة معروفة عند كل الشعوب ، وقد عزف (بيتهوفن) سيمفونية لبونابرت الذى غزا بلاده . وأذل شعبه ؛ كما تقدم (يوهان ولفجانج جوته) إلى بونابرت ، وخضع له ، وهو شاعر ألمانيا الأكبر .

هذه هفوات فى حياة العباقرة . وقد سقط (فولتير) فى إحدى هذه الهفوات . أو السقطات عندما ذهب إلى ألمانيا . وأوى إلى الإمبراطور فرد ريك الذى بنى لشاعر فرنسا الثائر قصر (بوتسدام) وجعل فيه غرفة لها قبة تشبه قبة السماء ، سماها قاعة فولتير ، مازالت موجودة حتى اليوم .

كيف أصبح داعية الحرية والثورة تابعاً من أتباع الإمبراطور فردريك الألمانى ؟ أشياء يحار العقل فى تحليلها . ولكنها حدثت عند كل الشعوب . وقد حدثت

عندنا فى مصر . وأنا أحكى لك هذه الحكايات ؛ لأنها قريبة من حياة (طه حسين) وحياة (شوقى) . فإن لقاء العبقرية لاينفصل . مهما لعبت السياسة أدوارها فى تلك اللعبة الهزيلة التافهة . التى تمضى . ثم تبقى العبقرية .

كان (طه حسين) هو الذى دعا إلى دراسه الأدب المصرى الحديث ، وجعل له كرسياً فى كلية الآداب سماه «كرسى شوقى» . ولكن هذا الكرسى انخلع . ولم نجد له أثراً فى دراسة أدبنا الحديث ، بل إنه لم يجلس عليه دارس واحد لعبقرية شوقى التى لاتتكرر .

محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وهما أعظم من أسمعنا صوتاً ، كان شوقى لهما هو صاحب الكلمة . وليس لهما خلود فنى إلا بخلود شوقى الأدبى .

ستفنى كل الكلمات التى غنياها وستبقى لهما كلمات شوقى أبد الدهر .

لقد روى (زكى مبارك) كيف آثر شوقى لقاء (طه حسين) على لقائه ، مع أن (زكى مبارك) كان من الدعاة لعبقرية شوقى على حين كان (طه حسين) من المعاندين لشوقى .

ولكن الأديبين الكبيرين لم يتحدثا عن المرأة فى حياة شوقى . وهو ما أريد أن أحدثك عنه . ونحن لم نعرف اسم زوجة شوقى ؛ لأن المجتمع المصرى فى عصره كان يخفى النساء فى الحريم . وكانت الأنثى (الوحيدة) التى عرفها شوقى للناس هى ابنته أمينة . ولعله فعل ذلك لأنها كانت طفلة لاتطمع فيها العيون .

قال (شوقى) مقطوعات شعرية فى ابنته أمينة ؛ ولعله ألف بعض أشعار الأطفال بسببها ، فقد كان يحبها حباً شديداً ، ويمنحها جيبه أو حافظة نقوده تتصرف فيها كما تشاء ، ولايمنعها من ذلك .

وكان حب شوقى لأمينة حبًّا عظيماً ، بل إنه من أعظم أشكال الحب . وقد كانت عواطف شوقى الأبوية زاخرة عاصفة . حتى إنه اصطحب ولديه (حسين وعلى) معه عندما نفى إلى إسبانيا ، ووجد فيهما السلوة فى الاغتراب . ولم يطلب اصطحاب زوجته . وهذه إحدى عجائب عبقريته ، فهو ليس فى حاجة إلى المرأة ولكنه فى حاجة إلى حب من لون آخر ، هو حب الأبناء ، لا حب النساء !

وكان شعر شوقى فى المنفى ينم عن حب آخر أعظم من حب المرأة ، فقد كانت كلماته كلها ترتبط بمصر :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهذا الشعور عند شوقى يدلنا على حقيقة شخصيته التى مازال كثيرون فى حيرة عندما يحللون عناصرها ، فهى شخصية شاعرة ، تعتقد العظمة الذاتية . وشوقى يشبه جوته فى بناء الشخصية .

الشعر أمير ، والشاعر أمير .

أما المرأة فإنها ليست بذات بال فى حياة العبقرى ، وقد اعتنق (عباس محمود العقاد) هذه الفكرة ، وكانت له هفوات هى هفوات العبقرية . ولكنه كان يعتقد أن المرأة متاع للرجل ، وليست صانعة لعبقرية القادر الفذ . وقد أسرف فى ذلك الفكر إسرافاً شديداً عندما تصدى للدكتورة بنت الشاطىء عائشة عبد الرحمن فى مقالات شهيرة منشورة .

والمرأة فى حياة العباقرة شىء مجهول مبهم ، وأنت تسمع قولهم : إن وراء كل عظيم امرأة ، وتسمع أيضاً أن العظيم يكون عظيماً بلا امرأة ، مثل أبى العلاء المعرى ، أو المتنبى أو شوقى .

عندما نفى (سعد زغلول) طلب من السلطة البريطانية أن تبعث إليه بزوجته صفية زغلول .

وعندما نفى (أحمد شوقى) طلب أن يصاحب ولديه (حسين وعلى شوقى) .

وقد نفى (شوقى) قبل (سعد زغلول) وهما متعاصران فى مجتمع واحد ، له تقاليد واحدة . وكلاهما تزوج زواجاً تقليدياً بلا حب أو غرام .

ما علينا ..

إن المرأة فى حياة شوقى محيرة . وقد كسر (يوهان ولفجانج جوته) هذه الحيرة عندما تزوج خادمته . وهو الذى رفض الزواج من الأميرات الجميلات !

شيء محير ..

المرأة لغز غريب عجيب . منذ نزلت حواء مع آدم فى بداية الحياة .

(حافظ إبراهيم) لم يتزوج ، ولم تكن فى حياته امرأة ، وخليل مطران كان مثله ، والعقاد أيضا لم يتزوج ، والآنسة مى زيادة لم تتزوج ، وكان العقاد من أحبابها مع غيره من الرجال .

ليس الأمر خاصاً بالرجل أو المرأة فيما أظن ، ولكنه خاص بالعبقرية الأدبية أو الفنية . وهذا هو ما يدعونا إلى التقريب بين المتنبى وشوقى فى الحب والعشق والهيام ، لأن ينابيع العبقرية لاترتبط هى وهذا الينبوع العادى الذى يربط بين رجل وامرأة . ولكنها تربط العبقرى بينبوع آخر هو العبقرية نفسها .

لقد تزوج (يوهان ولفجانج جوته) خادمته فى لحظة إحساس جنسى ، وأنجب منها ولداً تافهاً ، وهو شاعر الألمان الأكبر ، فكيف حدث هذا ؟ !

عندما تنجذب روح الشاعر بروح السماء يحدث النور الأعظم الذى يشعل

عبقرية الوجدان والشعور . وقد حدث هذا الانجذاب فى روح (شوقى) . فكانت اللذة عنده هى لذة اللقاء بين الأرض والسماء فى مفهوم الوحى الشعرى . وقد تحدث معاصروه عن هذه الجذبة أو الانجذاب الإلهامى مما يشبه الوحى . وهو لحظة الإيحاء عند أصحاب الفنون الرفيعة من الشعراء والموسيقيين والرساميين والنحاتين وغيرهم .

وكان (شوقى) من أصحاب الإيحاء ، شأنه فى ذلك شأن غيره من عباقرة الفن . وليس لنا أن ننظر إليه على مقاييس التطور والتغير فى الآداب وتاريخها ؛ فهذا حديث ممل يعرفه النقاد المدرسيون من محترفى النقد الأدبى .

إن العبقرية لاتقاس بزمان أو مكان ، ولكنها عبقرية فى ذاتها وصفاتها وأشكالها وتكوينها ، وإذا حاولنا دراستها فيما سبقها أو فيما يلحقها فإننا نبحث عن جوهرها فى الزمان والمكان ، وهما عاملان أساسيان فى قياس العبقرية ، والتعرف على مقوماتها ومكوناتها . ولكنهما ليسا قادرين على بناء العبقرية الذاتية التى تتفجر من الإنسان ، بل إنهما يساعدان على بناء هذه العبقرية .

والمرأة فى حياة (شوقى) لاتكاد تذكر ، وشعره فى الغزل هو أهون الشعر ، برغم قيمته الفنية العظيمة .

كانت شخصية (روميو) هى التى حركت جولييت فى مسرحية شكسبير الخالدة ، وكان (قيس) هو المحرك لشخصية (ليلى) فى مسرحية شوقى الخالدة . ولكن كليوباترة كانت هى الآمرة الناهية فى مسرحية شوقى (مصرع كليوباترة)

المرأة ..

لماذا المرأة ؟

عشق (شوقى) شخصيتين امرأتين ، هما (ليلى) و (كليوباترة) ، وأبدع فى تصويرهما إبداعاً عجيباً . ولكنه لم يجد فى مسرحيته (على بك الكبير) و (قمبيز) امرأة ليتحدث عنها ، مع أن العنصر الأساسى فى البناء الدرامى هو المرأة .

ولم يكن هذا هو العجز عن إيجاد شخصية نسائية فى مسرحيتى على بك الكبير وقمبيز . ولكنه كان الحب لشخصيتى ليلى وكليوباترة . والشاعر حين يحب لا يصرفه شىء عن حبه . وقد كتب شكسبير مسرحيته الشعرية عن (يوليوس قيصر) وليس عن (كليو باترة) وسلط الأضواء على البطل ، لا على البطلة ، وهكذا فعل (برنارد شو) عندما كتب مسرحيته (يوليوس قيصر) ، ولكن (شوقى) كتب عن (كليوباترة) وهذا هو الفارق الذى أحدثك عنه من ناحية إحساس الشاعر أو الفنان بالشخصية .

وكان (شوقى) يحب المرأة فى (مصرع كليوباترة) وكان يحبها أيضاً فى (مجنون ليلى) ، ولذلك لم يسقط اسمها حتى من عنوان مسرحيته الشعرية ، وذكرها باسمها ، ولم يذكر اسم قيس ، وكان فى إمكانه أن يسميها (قيس وليلى) بدلاً من (مجنون ليلى) .

هذا هو الخيال فى خيال الشاعر ، ولكن ما الحقيقة فى معرفة شوقى بالمرأة ؟

قصة طويلة عريضة ، رويت حولها الروايات ، وحكيت الحكايات .

غلام جميل زاحمه (شوقى) يوم الأحد عندما أراد دخول كنيسة فى إحدى قرى لبنان ، حيث كان يصطاف أمير الشعراء ، وأراد أن يختلس الغلام . ومازال بعض الأدباء يلوكون بين أفواههم مثل هذه الحكايات .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد رويت لنا أمثال هذه الأراجيف عن (زكى مبارك) ، وقد عرفته وعاصرته ، وكان من فحول الرجال علماً وأدبا وشخصية وقدرة قادرة .

من عجائب مصر أنها تتسلى بالشائعات ، ولا تصدق الشائعات . وهذه إحدى خصائلها المحمودة ، وفضائلها الباقية . وهى من أسباب بقائها فى صراع مع الزمن .

وقد أشيعت عن (شوقى) شائعات كثيرة ، ولكنها لم تمتد إلى صلاته الغرامية ؛ لأنه بحكم نشأته فى بيئة محافظة أو عمله فى القصر لم يكن فى استطاعته المجاهرة بالحب أو الغرام ، وقد كان يمشى ووراءه عيون ترقبه وتحصى كل خطوة من خطواته باعتباره شاعر القصر ، وكان الخديو يحصى على الناس أنفاسهم وخطواتهم ولا يسمح له بالاختلاط مع الشعب ، فكيف كان شاعر الأمير يستطيع ممارسة حياته العادية كما يعيشها الناس ؟

عندما كان إسماعيل تيمور باشا وهو ابن أحمد تيمور باشا يعمل فى وظيفة تشريفاتى فى قصر عابدين لم يكن يسمح له بالجلوس فى المحال العامة . وكان يتسلل إليها فى خفية عن الأعين ، وقد ترك أخوه محمد بك تيمور هذه الوظيفة فى قصر عابدين بسبب حبه للمسرح ، ولذلك كان (شوقى) يخفى صلاته الغرامية فلا يعلم بها أحد ، مع أن قلبه كان يشتعل بالوجد والغرام ، وكانت مطالع قصائده فى مدح الخديو من أعظم ما قيل من شعر الغزل ، ولكن السلطة كانت تمنع نشر هذا الشعر .

وعندما كتب شوقى قصيدته الرنانة فى مدح الخديو واستهلها بالغزل على طريقة الشعراء القدماء ، وبدأها بالمطلع الشهير :

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

بعث رجال القصر إلى مدير المطبعة الأميرية فى بولاق رسولاً ، وطلبوا منه حذف كل أبيات الغزل من القصيدة قبل نشرها فى جريدة الوقائع الرسمية .

وشعر الغزل عند (شوقى) ليس فيه حرارة الحب والعشق ، ولكنه شعر تقليدى ؛ لأن الشاعر لم يكن له غرام أو عشق وهيام ، وهذه هى إحدى العجائب .

كيف تمضى حياة شوقى بغير هوى وغرام ؟

سألنى أحد الأصدقاء عن النساء فى حياة شوقى ، وبحثت فى ذاكرتى ، وبعد قراءة مابين السطور فى حياة أمير الشعراء عجزت عن الوصول إلى المرأة التى أحبها شوقى .

قصة زواج أمير الشعراء لم يكن فيها حب ، بل إنه تزوج على طريقة عصره ، فكانت زوجته بنت أحد كبار الأثرياء . وهو زواج الحسب والنسب .

ولكن أمير الشعراء عرف كثيرات من النساء فى حياته . وكانت معرفته لهن تتصل بالفن ، وأشهرهن السيدة فاطمة اليوسف التى أنشأت مجلة روز اليوسف فى مبنى كان من أملاك شوقى عند بدء صدور المجلة ، وكان منهن المطربة الشهيرة السيدة ملك التى ألفت لها مقطوعات غنائية من أشهرها :

يا حلوة الوعد مانسّاك ميعادى عن الهوى أم كلام الشامت العادى ؟

وهى من أحلى الأغانى التى ألفها شوقى .

وكان أمير الشعراء من المعجبين بالممثلة الشهيرة (فاطمة رشدى) وقد سمعت من أحد المعاصرين أن (شوقى) كان يمر عليها فى دارها كل صباح ليشرب معها القهوة ، ويداعبها ، ويربت على خدها ، ثم يودعها . وكان يسميها (بطة) . وقد كانت (فاطمة رشدى) من أجمل الجميلات فى شبابها ؛ كما كانت نجمة ساطعة فى المسرح .

أما أم كلثوم فقد كتب لها شوقى الأغنية الذائعة :

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها　　　واستخبروا الراح هل مست ثناياها

ورفضت أم كلثوم هذه القصيدة ، وحدث بينها وبين شوقى خصام ، ثم غنت القصيدة بعد وفاة شوقى ، وبعد اثنى عشر عاماً من كتابتها . كما غنت أروع أشعار شوقى ، ولكنها لم تكن أشعار الغزل ، بل كانت أشعار الإسلاميات والوطنيات .

كان شوقى من عشاق الجمال ، ولكنه لم يعشق امرأة ، مع أن أستاذه (إسماعيل باشا صبرى) عشق الآنسة مى ، وقال لها :

أنتِ روحانية لاتدّعى　　　أن هذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن　　　للملا تكوين سكان السماء !

ونحن لانعرف تلك الفتاة الجميلة التى رآها (شوقى) فى وادى زحلة بلبنان ، ثم كتب قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى　　　مايشبه الأحلام من ذكراك

ولعلها كانت فتاة من بنات الجبل تجمع عناقيد العنب من الكروم ، أعجبت أمير الشعراء .

وكانت حياة الشاعر الشاب فى فرنسا بعيدة عن المغامرات ، فلم نعرف أنه أحب أو عشق ، وهو يشاهد مواكب الجميلات فى باريس أو مونبلييه . وتلك إحدى العجائب الغرائب .

إن البحث عن المرأة فى حياة شوقى مثل البحث عن المرأة فى حياة المتنبى : فقد تعب الذين درسوا حياة المتنبى فى البحث عن المرأة . حتى قالوا : إنه أحب أخت سيف الدولة الحمدانى ، ولم يجرؤ على الإفصاح عن حبه خوفاً من سيف الدولة ، ولكنه صرح بهذا الحب فى رثاء تلك الأميرة الحمدانية بعد موتها . بل إن بعض

الذين يتصيدون زعموا أن السبب فى الخصام بين المتنبى وسيف الدولة كان هو عشق تلك الأميرة التى ماتت .

لقد تعبت فى البحث عن المرأة فى حياة شوقى .

فى ليلة موته لم تكن معه زوجته ، بل كانت فى غرفتها ، وكان خادمه الخاص هو الذى يرعاه وحين أحس الخادم بالخطر على حياة سيده دعا سيدته ، فجاءت من غرفتها لتودع زوجها أمير الشعراء الوداع الأخير .

وكان حب شوقى لابنته أمينة من أعنف ألوان الحب ، فقد استباحت جيبه وهى طفلة ، وكان يسعد سعادة غامرة ؛ لأنها تستبيح جيبه ، وتأخذ مامعه من نقود ، وعندما نفى إلى الأندلس أخـذ معه ولديه (على وحسين) ، وكان شديد السعادة برفقة ولديه الشابين فى غربته ، ولم تكن له فى إسبانيا مغامرة واحدة نشم منها رائحة العشق والهوى .. بل كانت قصائده كلها فى الحنين إلى مصر معشوقته الأولى والأخيرة .

ولكن ليس معنى ذلك أن أمير الشعراء كان جامد الحس ، أو بعيداً عن الاستمتاع بالمرأة ، فقد كان يستلطف اللطيفات .. ولم يكن مجاهراً بمتعته ؛ لأن البيئة التى وجد فيها قضت عليه بالرصانة والتستر .

شاعر الخديو لايصح له أن يبوح بما فى قلبه فى مشاعر أو إحساسات . ولذلك اختفت أمامنا صور العشق فى حياة (شوقى) ، ولا أعتقد أنها اختفت من حياته . ولكنها كانت من لون آخر مما يصل إليه أصحاب اللذة والمتعة بغير عشق وغرام . وهو ما نسميه غرام الأثرياء أصحاب المال والسلطة والقدرة . وله فى التاريخ شواهد كثيرة ، ولكنه على كل حال ليس غرام الشعراء والأدباء والفنانين .

كانت للشاعر (إبراهيم ناجى) غراميات لاتنتهى ، وكان يتغزل فى كل امرأة يلقاها ، ولو كانت من أقبح القبيحات ! ولكن شاعريته هى التى كانت تنطق بالهوى والغرام ، وترى القبح حسناً ، وترى الدميم جميلاً فيسيطر عليه الخيال ، وينتقل من حالة الوجود الحسى إلى حالة الوجود الروحانى ، والشاعر القديم يقول :

أهيم بالحسن كما ينبغى وأرحم القبح فأهواه !

ولكن (شوقى) كان يهيم بالحسن وحده ، ويصفه ويصوره ، ولكنه لم يحترق فى نار الهوى والغرام ولذلك كان شعر الغزل عنده فاتراً برغم جمال تصويره وإبداعه وأنت لاتجد فى شعر (شوقى) كله غراميات ، مع أنه ألف روايتين غراميتين هما (مجنون ليلى) و (مصرع كليوباترة) .

هو يتحدث عن الحب ، ولكنه لايحب ولايعشق ولا يذوب فى غرام !

وشوقى الشاعر ليس مؤلف دراما .. ولكنه قبل كل شىء شاعر .

كيف لايحب الشاعر؟

أنا حائر فى هذه القضية ، وقد حيرت من قبلى من تحدثوا عن المتنبى ، فبحثوا عن غرامه ، ومازلت أبحث عن غراميات شوقى .

وأقول لك : إننى لا أبحث عن هذه الغراميات من أجل الهواية ، ولكننى أبحث عنها لأعرف : لماذا كان شعر (شوقى) فى الغزل بارداً فاتراً ضئيلاً ؟

إن قصيدته الشهيرة :

ياجارة الوادى

ليس فيها دفء الحب ، ولكن فيها حب الطبيعة .. وليست فيها أنثى تثير خيال

شاعر . وهو يقول فيها :

ودخلت فى ليلين فرعك والدجى ولثمت كالصبح المنور فاك

هو يعانق الليل لا أحضان امرأة ، وهو يقبل الصباح ولا يقبل شفتين ظامئتين للقبل .

الصورة رائعة . . رائعة . . والعاطفة ضائعة . . ضائعة .

كيف أعانق الليل وأقبل الصباح ؟

ولكن براعة شوقى وعبقريته طغت على كل شىء ، حتى على العاطفة ، وأنت تسمع قصيدته

مضـــنـــاك جـــفـــاه مــرقــده
وبـــكـــاه ورحـــم عـــوده

فترق معه ، حتى تسيل منك الدموع ، ولكنه فى موسيقاه ، وألفاظه وصوره البارعة — لم يلمس قلباً ، ولم يصل إلى حس عاشق ولهان .

هذا العبقرى الشاعر لم يعشق امرأة واحدة يحس معها الدفء والحنان والحب ، ولكنه عشق الجمال مجردًا ، فتصوره فى الطبيعة أحياناً ، وفى مشاعر الآخرين أحياناً أخرى ، ولكن .

أين المرأة التى أحبها شوقى ؟ ومن المرأة التى أحبها شوقى ؟

رحلة حياته كلها كانت بلا امرأة معشوقة ، ولو كانت فى الخيال ، وهو أعشق عشاق الجمال . . !

قلت لك : إننى لاأصدق أنه كان بلاعشق وبلا غرام .

وقلت لك : إنه لم يصل إلى فن الغزل حتى فى رواياته الغرامية الشعرية .

إن (شوقى) كان عبقريًا بلاامرأة ، وتلك إحدى عجائب الزمان . والعجيبة

السابقة هى المتنبى .

ولكن العبقرية قد تتفجر أحياناً من الذات ، وليس للعبقرية قاعدة ، لأنها شذوذ ، وما كان شذوذًا يمكن أن يحدث ليخالف كل قاعدة تعرفها العقول .

ولذلك اعتقد كثيرون من النقاد أن (شوقى) لم يكن يحسن هذا اللون من الشعر وهو شعر الغزل .

يقول بطرس البستاني .

«تغزلَ شوقى ، ولكنه لم يبرع فى هذا الفن براعته فى غيره من الأغراض ، لأن الغزل من الوجدانيات التى ينبغى للشاعر أن يحس تأثيرها فى نفسه ، فإن لم يكن لألم الحب من سلطان على قلبه فهيهات أن يأتى بغزل عاطفى صادق اللوعة ، متواصل الحنين . وشوقى لم يكن من المتيمين المتألمين ، ولا من العشاق الروحانيين ، وإنما هو صاحب لذة يتتبعها فى مواطنها ، فما تحرمه سعة يده الوصول إليها . فلم يشعر بذلك الألم الذى يشعر به من يغرى بشىء . ويصعب عليه نيله ، فيأسف عليه ، وييأس ، وتثور عاطفته وجداً وكمداً . فيلفظها لسانه ، قطعاً دامية من أفلاذ كبده !

ولم يكن (شوقى) مجاهراً بلذته . فيستر عجزه عن بث لواعجه بغشاء من القصص الغرامى ، لأن البيئة التى وجد فيها قضت بالتستر فشاعر الخديو لايصح له أن يكون مستهتراً ، بل لايصح له أن يعنى بالنسيب . وربما استهل مدحته متغزلاً ، وأراد نشرها فى جريدة الحكومة ، فتوعز بطانة الأمير إلى مدير المطبعة أن يسقط الغزل منها ، كما أصاب قصيدته : خدعوها بقولهم حسناء . ومثل هذا التعرض من الحكومة يخمد نشاط الشاعر إلى النسيب ، ويحمله على الاقتصاد فيه ، وقلة التبسط فى شرح أحواله .

وشوقى فى غزله مقلد متكلف ، يترسم (البهاء زهير) فى سهولة ألفاظه ، ولين

تعابيره ، وخفة أوزانه ، وابتذال معانيه :

مُضْنًى وليس به حراك لكن يَخِفُّ إذا رآك

فكأنه ينظم هذا الشعر ، لارغبة فى النسيب ، وإنما ليتغنى به المغنون .

ويعارض أبا الحسن الحصرى القيروانى فى قصيدته الشهيرة : ياليل الصب متى غده ؟ والمعارضة ضرب من التقليد :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده

ويحاول أن يحتذى على مثال ابن أبى ربيعة فى زياراته الليلية ، فيطرق فتاة الحى ، وتزجره النساء ، حتى إذا عرفنه طلبن منه الأمان للعذارى ، ولكنه يقصر عن عُمر أشواطاً ، سواء فى الصراحة والصدق ، أوفى جمال القصص والحوار .

ويصطنع غزل الشعراء والفرسان ، فيمزج ألفاظ الحب بألفاظ الحرب ، وهو لم يشهد وغى ، ولاحمل سيفاً ولارمحاً :

فلكم رجعت من الأسنة سالماً

وصررت عن هيف القدود طعينا

ويدخل الحكمة فى نسيبه كالمتنبى :

وأعلم أن الغدر فى الناس شائع

وأن خليل الغانيات مضيع

ويخشوشن مثله ، فيقاتل العيون ، كما قاتل أستاذه الخدور :

ياقاتل الله العيونَ فإنها

فى حر مانصلى الضعيفُ البادى .

ويتغزل بالطبيعة كأنها امرأة فعل ابن الرومى :

ودخلت فى ليلين فرعك والدجى

ولثمت كالصبح المنور فاك

وهو مقلد فى وصف محبوبه ، يعنيه أن ينعت شعره وعينيه وثغره ورضابه وقوامه . ويخصه بالتشابيه المبتذلة : بالليل . والسيوف واللؤلؤ والكوثر والغصن . وقلما يلتفت إلى وصف العواطف والأهواء ومايعتاد النفس من شوق وصبابة وغيرة وحرقة وخوف وأمن ويأس ورجاء . أو إلى تصوير طباع محبوبه وما يلتقطه من حركاته وسكناته وغنجه ودلاله ، بيد أنه يذكر طول ليله ، ويراعى النجم ، ويتحدث إلى الحمام ، ويشكو ويئن ويتظلم متشبهاً بالشعراء المتيمين .

ولايخلو غزله من جمال الفن وحسن الصناعة ، وإن خلا من صدق العاطفة ، وحدة المعنى ، وقد تخضع له أبكار المعانى . ولاتستسلم بنات العواطف كقوله :

صونى جمالك عنا إننا بشر   من التراب وهذا الحسن روحانى

أو . .

فابتغى فلكاً ، تأوينه ملكاً   لم يتخذ شركاً ، فى العالم الفانى

١٣ – موسيقيون ومطربون

قراءة مابين السطور هواية ممتعة ، وعندما كنت أبحث عن الشخصيات فى حياة (شوقى) لم أحاول معرفة تواريخ حياتهم وأحوالهم . ولكننى أريد أن أعرفهم .

فى حياة (شوقى) شخصيات لاحصر لها . ومنهم الأعلام المشهورون . وفيهم المغمورون ، وبعضهم نسيه التاريخ . لأن التاريخ ينسى فى بعض الأحوال .

كانت فى مصر عند بدايات القرن العشرين مطربة اسمها (ليلى لزمى) أطلقوا عليها لقب طائر الجنة . ونعتوها بنعت بلبلة الشرق . ويبدو أن أمير الشعراء كان معجباً بها . فانتهز فرصة احتفال لجمعية الهلال الأحمر بالإسكندرية . وكانت ليلى مطربة الحفل ، فكتب لها تحية من بدائع شعره . قال فيها :

رُدتّ الروح على المضنى معك   أحسنُ الأيام يومٌ أرجعك

وهى قصيدة على نغم ابن زيدون فى قصيدته الذائعة :

ودّع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

وكان خليل مطران هو الذى عرف (شوقى) بهذه المطربة . بل إنه هو الذى أطلق عليها لقب طائر الجنة .

وخلال حياته اقترب شوقى كثيراً من أصحاب الطرب والغناء . قبل أن يصطفى بلبل الشرق الصداح محمد عبد الوهاب . وسبب ذلك فيما أعتقد هو موسيقى الشعر ، فقد كانت أذن أمير الشعراء تسمع اللحن وتصوغه شعراً . وهى موهبة خارقة لم يصل إليها إلا كبار الشعراء ومنهم (يوهان ولفجانج جوته) شاعر الألمان . فقد كان صفيه وصديقه الموسيقار الأعظم (لودفيج فان بيتهوفن) . وكان الوزير جوته يتحمل بيتهوفن فى هفواته ، وقد أعدَّ له بيانو خاصًّا فى بيته لايعزف عليه أحد سواه !

وهكذا فعل (شوقى) مع عبد الوهاب ، على خلاف فى الصورة ، فإن عبد الوهاب جم الأدب ، عظيم الأخلاق ، وليس سوقيًّا مثل بيتهوفن .

ولكن شخصيات الفنانين فى حياة (شوقى) كثيرة ، وكلهم ليسوا على مستوى عبقرية شوقى ، ولذلك كان عبد الوهاب هو اللحن والصوت الذى التقى فى النهاية وأمير الشعراء ، ولم يفهم كثيرون لماذا اختصه (شوقى) بهذه الرعاية ، ولم يهتم بأم كلثوم مع أنه قال : إن صوتها مثل الذهب الإبريز ؟

محمد عبد الوهاب موسيقى ومطرب ، وأم كلثوم مطربة وليست موسيقية ، والشاعر يحتاج إلى الموسيقى قبل الطرب . ولو كان (شوقى) فى حاجة إلى مطرب لاستطاع أن يقرب إليه (صالح عبد الحى) الذى كان أعظم من الصبى الناشئ محمد عبد الوهاب .

الموسيقى هى التى جمعت بين (شوقى وعبد الوهاب) وليس صوت عبد الوهاب ، ولذلك انصرف إليه أمير الشعراء ، وجعل له غرفة فى بيته ؛ لأن

موسيقاه كانت وحياً لأمير الشعراء ، وأعظم شيء فى شعر شوقى موسيقاه .

إن الشعر ليس بحراً وقافية ، وإلا كانت ألفية ابن مالك فى النحو من عيون الشعر .

الشعر نغم يرتديه اللفظ ، وينسجم هو والكلمة ، والنغم فى الشعر أسبق من اللفظ . وكان (شوقى) يغمغم قبل أن يكتب قصائده ، وهذه الغمغمة هى النغم ، وهى السلم الموسيقى الذى يؤدى إلى الألفاظ والكلمات .

إننى أعتقد أن (شوقى) استوعب الموسيقى العربية والموسيقى الأوربية حتى ملأت كيانه ، وأنه كان يقول الشعر على النغم ، ثم تنسجم الكلمات والحروف .

فى الخمر يقول :

رمضان ولّى هاتها ياساقى ... مشتاقة تسعى إلى مشتاق

ويقول :

حف كأسها الحبب ... فهى فضة ذهب

وليس للميزان الشعرى قيمة فى هذا ، فهناك ميزان آخر هو النغم والكلمة المنطوقة ، وحرف كل كلمة من هذه الكلمات يتناغم هو وحرف آخر

إن موازين الشعر مثل سلالم الموسيقى يعرفها الدارسون ، ولايعرف كيف يحركها الاالفنانون . وهذا هو سر الأسرار .

فى رثاء سعد زغلول يقول شوقى :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها

وانثنى الشرق عليها فبكاها !

وفى رثاء حافظ إبراهيم يقول :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى

يا منصف الموتى من الأحياء

وأنت ترى فى رثاء سعد خشوعاً وخضوعاً فى نغم الشعر ، مع ارتفاع للنغم الشعرى إلى السماء باستخدام الألفات والهاءات فى نهاية المقاطع .

وفى رثاء حافظ استسلام وانكسار ، حتى إنه استخدم الهمزة المكسورة فى نهاية المقاطع بسبب هذا الانكسار الذى كان يحس به أمير الشعراء ، ويترقبه فى نفسه عند النهاية .

وأنت تسمع :

ولد الهدى فالكائنات ضياء

فتحس بأن نغمة الشعر تتآلف هى والنور عن طريق التركيب اللفظى بكل حروفه المتناسقة التى تصل بك إلى الشطر الآخر من البيت :

وفم الزمان تبسم وثناء

إن الدراسة الصوتية لشعر شوقى من الأمور الهامة . وقد التفت الدكتور إبراهيم ناجى إلى خصائص هذا الشعر العبقرى . ووصفه بالموسيقية .

وعندما عقد مؤتمر الموسيقى الشرقية فى القاهرة عام ١٩٣٢ ، كتب شوقى قصيدة حيا فيها المؤتمر ، وألقيت بدار الأوبرا يوم ٣ من أبريل ١٩٣٢ ، قال فيها هذه الرائعة المنغمة :

نزل المنازل والربا آذارُ	يحدو ربيع ركابه النوّارُ
يختال فى وشى الرياض وطيبها	وتزفه الربوات والأنهارُ
سمح البنان بكل مازان الثرى	فالوشى يوهب والحَلىّ يعار
ملأ الخمائل من تصاوير كما	ملأ الرفارف بالدمى الحفّار
فى كل دوح دمية ومنصة	وبكل روض صورة وإطار
حدجته بالبصر الخمائل مثلما	حدجت بعينيها العروس الدار
لبست له الآمال بهجة شمسها	وتزينت للقائه الأسحار

حبته بالنغم الهواتف فى الضحى . وترنمت بثنائه الأوتار
والماء يطفر جدولاً ويفيض من عين ويخبط فى القنى ويحار
جر الازار فكل روض حامل مسكاً وكل خميلة معطار
فى كل ظل مزهر مترنم ووراء كل نضارة مزمار
وعلى ذؤابة كل غصن قينة الصبح خلف بنانها والطار
والنيل فى الوادى نجاشى مشى فى ركبه الرؤساء والأحبار
سحبوا الطقوس ورتلوا إنجيلهم فتعالت الصلوات والأذكار

هذه صورة موسيقية ، أو (لوحة) منغمة . تحكمها قافية عجيبة مثل القفلة عند المغنين المبدعين .

وشوقى يقول فى هذه القصيدة بيتاً من بدائعه المشهورة :

لاتعشق الآذان إلا الانغمة كانت عليها فى المهود تدار

وهذا المعنى هو خلاصة الخلاصة فى فنون الموسيقى عند الشعوب ، فكل شعب له موسيقاه التى ينشأ عليها منذ كان فى المهد صبياً .

لقد كان (شوقى) شديد الاهتمام بالموسيقى والموسيقيين . وعندما افتتح معهد الموسيقى الشرقى عام ١٩٢٩ ، وكان الملك فؤاد هو الذى افتتحه ، ألف شوقى نشيداً خاصاً للمعهد ، ولحن النشيد (مصطفى بك رضا) رئيس المعهد . ومن مقاطع هذا النشيد فى تحية الملك يقول (شوقى) :

القانون سلم عليك ياحامى القانون
والعود اتكلم حيا معز الفنون
والناى اتقدم وقال : الله يصون

وألقى الأستاذ (على الجارم) قصيدة شوقى فى هذا الحفل . وأبدع مافيها قوله عن فن الموسيقى :

لولا ابتسام الفن فيما حوله
ظل الوجود جهامة وجفاء
جرد من الفن الحياة وماحوت
تجد الحياة من الجمال خلاء

ألف شوق أدواراً غنائية لكبار المطربين قبل عبد الوهاب ، فقد نظم لعبده الحامولى دور :

ياما انت واحشنى وروحى فيك

كما كتب له (موال) :

كل اللى حب اتنصف وأنا وحدى اللى شكيت

وقد غناها عبد الوهاب بعد ذلك .

وألف شوقى موالاً غناه الشيخ يوسف المنيلاوى وهو :

ساهى الجفون ماكفاك الهجر ياساهى
فرحان بتلعب وعن حال الشجى ساهى
الليل يطول ياقمر وأنا سهران عليك ياساهى
حسّك تقول مدّعى ياجنن العشاق
القلب أهو جريح والكبد للسّاهى

وقد ألف شوقى للمطربة ملك مقطوعات شعرية بعضها بالفصحى وبعضها بالعامية . ومنها أغنية الليل التى يقول فيها :

الناس لليل تشكى وتجى لـه تحكى
والليل لمين يشكى ويروح لمين يحكى
بدرك ياليل طلعته وبدرى خبيته
غاير ياليل قل لى تكونش حبيته

وكانت صلة شوقى بأهل الفن أصيلة وعميقة ، فهو يقدرهم حق قدرهم . وقد كتب روائع فى رثاء الراحلين منهم .

قال عن عبده الحامولى :

ساجع الشرق طار عن أوكاره
وتولى فنٌ على آثاره
كان مزماره فأصبح داو
دكئيباً يبكى على مزماره
يسمع الليل منه فى الفجر: ياليـ
ـل فيصغى مستمهلاً فى فراره

كما قال عن عبد الحى حلمى المطرب الشهير ، خال صالح عبد الحى :

كان الندامى إن شدوت وعاقروا
سبان صوتك بينهم والراح
فيما تقول مغنيا ومحدثًا
تتنافس الأسماع والأرواح

وعندما وصل (شوقى) إلى سيد درويش ، كان معه محمد عبد الوهاب . ك خاطب سيد درويش قائلاً :

سيد الفن استرح من عالم
آخر العهد بنعماه البلاء
ربما ضقت فلم تنعم به
وسرى الوحى فنسّاك الشفاء
لقد استخلفت فنًّا نابغاً
دفع الفن إليه باللواء

ناحل كالكرة الصغرى سرى
صوته فى كرة الأرض الفضاء
يستحى أن يهتف الفن به
وجمال العبقريات الحياء

وهو فى هذه القصيدة التى كتبها عام ١٩٣١ فى ذكرى سيد درويش ، يتحدث عن محمد عبد الوهاب ، ويتنبأ له بالعبقرية .

كانت أنغام الموسيقى من أعظم الشخصيات فى حياة أمير الشعراء . وعندما تذكر (عبده الحامولى) فى ساعة صفاء كتب يقول :

ياطير مالك لاتهيج لك الجوى
نسمات أسحار خطرن رقاق
مات الحمولى والغرام فلا الصبا
فى العالمين صبا ولا العشاق

وهو يقصد نغمة (الصبا) وهى من نغمات الموسيقى الشرقية .

رأى عازف عود يحسن العزف ، فقال :

وصاحب عود به عازف يحرّكه عن هزار غرد
أنامله تلتقى فى الفؤاد وريشته تنبرى للكبد

أما الناى فقد كان من عشاقه :

ياناى كيف عرفت أرباب الهوى
وحكايتهم فيه حكاية صادق ؟
فكأن صوتك أنة بعث الجوى
وكأن غابك من ضلوع العاشق

وكان شوقى يستمتع بسماع الموسيقى من العازفين ، وقد اشتهر (أمين بزرى)

الذى كان من اغنياء البلد م نكبه الدهر – بالعبقرية فى العزف على الناى . حتى احترف العزف فى الأفراح والحفلات . وأعجب أمير الشعراء بعازف الناى ، فقال له :

سألوا أميناً كيف يبكى الناى فى
يده ويستبكى الملا بشجونه
فأجاب خِلّى لاعدمت وداده
أبكى على عينى بكل عيونه

أما الكمان فقد كان عازفه الأشهر فى ذلك الزمان هو سامى الشوا الذى لقب بلقب أمير الكمان . وقد وصفه أمير الشعراء فى قصيدة من بدائعه قال فيها :

ياواحد الفن فى أزجى معازفه
هذا أوان الثناء العدل قد آنا
يارب ليل سمرنا الراح فاختلفت
على بنانك للسُّمّار ألحانا
تلك اللعيبة من عود ومن وتر
لولا بنانك لم نجعل لها شانا
قد آنست رحمة فى الصدر فاتكأت
بجانب الأذن تستوحيك شيطانا
كأنها عش طير هاج آهله
من كل ناحية ينساب أشجانا
ضممتها وتواصت راحتاك بها
ضم الوليدة إشفاقاً وإحسانا

تملى عليها الذى يوحى إليك به
كأن داود والمزمار مابانا

حركتها فأتاها الروح فاندفعت
تبكى وتضحك أوتاراً وعيدانا

مصرية النبر وهابية عذبت
شدوًا ونوحاً وترجيعاً وتحنانا

هذه الوصف البديع للكمان وعازفها ، ومايتحرك فى مشاعره ، ومايحرك به أوتاره ، حتى تنبعث الروح فى النغم – يصل بأمير الشعراء إلى محمد عبد الوهاب ، فهذه الكمان مصرية النبر ، ولكنها وهابية عذبة الشدو .

لقد تجمعت كل أنغام الموسيقى والألحان عند (شوقى) فى شخص واحد هو محمد عبد الوهاب . وهذه الشخصيات العديدة التى عرفها واستمع إلى عزفها أو غنائها تنتهى به دائما إلى عبد الوهاب ، وكان (شوقى) على حق فى تصوره . لأنه اكتشف العبقرية التى قلما يجود بها الزمان !

١٤ – عرابى . . وسعد زغلول

جنت على (شوقى) نشأته الأرستقراطية ، ومولده بباب إسماعيل خديو مصر ، وعمله فى القصر ، واعتباره شاعر الأمير ، ومازال الكتاب والدارسون ينظرون إليه هذه النظرة . وكنت واحداً منهم ، فكتبت مقالاً فى جريدة البلاغ عنوانه (شوقى شاعر الملوك) وغضب الدكتور محمد صبرى السوربونى بعد أن قرأ المقال ، وجاءنى مهدداً ومتوعداً ، وقال لى :

– حرام عليك !

ولم أكن أعلم أن الدكتور (صبرى) يعد كتابه (الشوقيات المجهولة) ، وأنه فرّغ نفسه لهذا العمل العظيم ، ثم استهواه (شوقى) ، فجرى وراء أسراره ، وبحث عن تفاصيل حياته ، وتحدث مع معاصريه فعرف منهم مالم يكن يعرف .

كان ذلك فى عام ١٩٥٠ .

وفى تلك الأيام تلقيت رسالة من صديق الراحل الأستاذ راشد رستم فيها قصاصة مقالى ، وعليها اسم راشد رستم بخطه ، وبغير تعليق .

وراشد رستم هو حفيد (عثمان باشا رفقى) وزير حربية توفيق الخديو ، وغريم أحمد عرابى .

عرفت فى تلك الأيام أننى يجب أن أعرف تاريخ مصر على حقيقته بنفسى ، لا عن طريق كتب المؤرخين أو الباحثين المعاصرين . وتعلمت قراءة الوثائق ، حتى أصبحت من هواياتى ، إلى جانب مايكتبه الثقات من أصحاب التاريخ الذين لايميل بهم الهوى .

وعندما كتب (سلامة موسى) مقالاً فى جريدة الأخبار عن أمجاد (محمد على) وأسرته ، ليستجدى به رتبة البكوية من فاروق ، اشتد حنقى عليه ، وكتبت مقالاً لم أشر فيه إليه ، ولا إلى مقاله ، وكان عنوانه : تاريخ الشعب لاتاريخ الملوك ، ونشرته فى جريدة البلاغ . وفهم (مصطفى أمين) بذكائه الصحفى البارع ماأقصد إليه ، ولكننى كنت أهرب من تهمة العيب فى الذات الملكية ، فجعلت الموضوع مما يشبه الدراسة العلمية وطالبت بدراسة تاريخ الشعب المصرى لاتاريخ ملوكه وحكامه .

كنت أعشق شعر شوقى ، ولكننى لاأعرف الشاعر الذى ثارت من حوله الزوابع . وعندما قلت – إنه شاعر الملوك – كنت أتخذه وسيلة للتنفيس الثورى ضد حكم الملك فى مصر ، وقد ظلمت (شوقى) .

ولكن ظلمى كان أخف وطأة من ظلم (طه حسين والعقاد والمازنى) وغيرهم لأمير الشعراء .

قلت لك : إن أرستقراطية شوقى جنت عليه ، وساعد على ذلك أن معاصره الشاعر العظيم (حافظ إبراهيم) كان شعبيًّا ، بل كان ابنَ بلد أصيلاً . والمقارنة

العابرة بينهما تجعلك تعتقد أن (شوقى) هو شاعر الملوك ، وحافظ شاعر الشعب . وقد أطلقوا على (حافظ) عندما تصدى لحادثة دنشواى لقب (شاعر الوطنية ومشهر دنشواى فى البرية) ، كما أن إطلاق لقب أمير الشعراء على (شوقى) ، ولقب شاعر النيل على حافظ جعل المقارنة واضحة بين الشاعرين فى أذهان الناس .

ولكننا اليوم ، وبعد هذه السنوات القليلة التى مضت بعد عصر (شوقى وحافظ) ، نستطيع أن نقول : إن (شوقى) كان شاعر الشعب ، وهو أمير للشعراء .

إن النشأة الأرستقراطية لاتمنع من أن يكون الفنان فناناً للشعب . وقد أصبح (يوسف وهبى) فنان الشعب بسبب ما أداه من أعمال جليلة على خشبة المسرح لجماهير الشعب المصرى . وقد لايكون الفنان المتواضع الناشئ فى بيئة غير أرستقراطية فناناً للشعب ، بل فناناً للأرستقراطية ذاتها ، حين يقدم للطبقة الأرستقراطية مايسليها ، فيصبح مضحك الملك ، أونديم الباشوات .

كان الشيخ على الليثى فى الجيل الماضى نديم الخديو إسماعيل وشاعر القصر ، وقد وصفه العقاد قائلاً :

« لانحسب أن فى شعراء الجيل الماضى شاعراً يمثل مدرسة الندمان كما كان يمثلها الشيخ على الليثى الذى ارتقى فى هذه الصناعة حتى نادم إسماعيل وتوفيقاً ، وبقى من نوادره ودعاباته مايذكره المتأدبون والمعنيون بأخبار القصور حتى فى أقصى الصعيد » .

وقد عرف الشيخ على الليثى (والد شوقى) فى قصر عابدين ، ثم عرف شوقى وعرفه شوقى ، وقال الشيخ : إن شوقى سيخرق خرقاً فى الإسلام .

أدرك (شوقى) منذ بدايات حياته وظيفة شاعر القصر ، وعرفها فى الشيخ على

الليثى ، ولم يكن فى حاجة إلى من يعرفه بها ، ولكن الشاعر الشاب طلب من الخديوى إعفاءه من ارتداء الملابس الرسمية التى كانت من ضرورات الظهور فى القصر وحفلاته الرسمية ، وأذن له الخديو عباس حلمى بذلك . وهذه الثياب الرسمية مما يغرى شاباً مثل شوقى بالتظاهر أمام أقرانه بالأناقة ، ولكنه ابتعد عنها لسبب نفسى ، هو أنه كان يشعر بحياته الخاصة مع الناس ، مع ارتباطه العائلى الموروث بقصر عابدين .

وشوقى شاعر الأمير كانت له وظيفة رسمية فى القصر هى (رئيس القلم الإفرنجى) ، ولم يقبل أن يكون نديماً وشاعراً بلاعمل ، وتكتب على باب غرفته الجملة الشهيرة التى كتبت على باب الشيخ على الليثى :

« إنما نطعمكم لوجه الله ! »

وليس معنى ذلك أن (شوقى) لم يكن يحترم الشيخ (على الليثى) ، فقد ذكر بنفسه أنه كان يرى فيه إنساناً عظيماً فاهماً للشعر مقدراً للشعراء ، ولكن تجربة الشيخ فى قصر عابدين علمت (شوقى) درساً عظيماً ، وساعدته نشأته وثقافته على استيعاب الدرس ، فانفصل بوجدانه وهو الأرستقراطى المرفه عن كل مظاهر القصر ، وكان يرتدى الملابس الخشنة ، ولايهتم باختيار الثمين من الثياب ، وهو قادر على ذلك .

قال (زكى مبارك) : إنه عندما رآه أول مرة فى بيت عبد اللطيف بك الصوفانى بالحلمية الجديدة لم يصدق أنه أمير الشعراء ، وتمازحا معاً ، وقال له : إنه يملك ثلاثة جنيهات يتبرع بها لأمير الشعراء حتى يشترى لنفسه بدلة جديدة .

والشعراء لهم أحوال مثل أحوال الصوفية .

شوقى الذى كان يستحم بماء الكولونيا ، ويعيش فى قصره حياة الأمراء ، رفض ارتداء الردنجوت والفراك والملابس المقصبة بالذهب فى قصر عابدين !

شخصية فريدة نادرة هذه الشخصية .

رؤساء الوزارات والوزراء ومشايخ الأزهر كانت لهم ملابس التشريفات المقصبة بالذهب ، وأمير الشعراء شاعر القصر يرفض هذه الثياب !

وعندما منح (شوقى) لقب الإمارة من السلطان عبد الحميد الثانى لم يستخدم هذا اللقب ، بل كان لقبه الرسمى هو أحمد شوقى بك ، وكان لقبه بين خاصته هو لقب الباشا ، الذى لم يحصل عليه من خديوى مصر ، لأنه نال لقب الأمير وهو أعلى وأعظم ، وقد أنعم عليه بهذا اللقب السلطان عبد الحميد .

الشاعر الذى فر من ملابس التشريفات ، والثياب الرسمية — هو نفسه الذى فر من لقب الإمارة ، واكتفى بإمارة الشعر .

ولم يكن هناك مايمنع (شوقى) من التلقب بلقب الأمير ، فقد كانت مصر مملوءة بالدوقات والبارونات والأمراء . وكان الملك حسين بن على ملك الحجاز قد أنعم بلقب الإمارة على (حبيب لطف الله) ، ليتوارثه عنه أبناؤه وأبناء أبنائه إلى ماشاء الله ، وأصبح فى مصر أمراء يحملون اسم لطف الله . . وكان فيها البارون منشة . . والكونت . . إلى آخر هذه الألقاب .

لماذا أخفى شوقى لقب الأمير الذى استحقه وحصل عليه فى مجتمع كان شديد الاحتفال بالألقاب ؟

إننى أعتقد أن (شوقى) كان يهمه لقب واحد هو : أمير الشعراء ، وهو اللقب الذى يميزه بين كل الأمراء ولم يكن يهمه أن يقال : الأمير أحمد شوقى .

يرى (عباس محمود العقاد) أن (شوقى) كان يحس بالوطنية المصرية ، كما يحسها التركى المتمصر من طبقة الحاكمين ، أو المقربين من الحكومة . وأن مصر التى كان (شوقى) ينظم فى تاريخها هى مصر الأسر المالكة ، والعروش الحاكمة ، وليست بمصر الشعب والسلالات الوطنية ، أو هى مصر التى يعنى بها رجل البلاط

يقرن الحاضر إلى الماضى بهذه السلسلة . (البلاطية) فى العصور كافة ، وليست مصر التى هى وطن لكل مصرى كبير أوصغير وحاكم أومحكوم .

كان العقاد من خصوم (شوقى) ، ولذلك فإن رأيه فيه يحمل معنى الخصومة . ولايصح فى أى مذهب أن يكون الخصم حكماً ، ولذلك لم أحدثك عن (طه حسين) كشخصية فى حياة (شوقى) ، ولم أحدثك عن (مصطفى صادق الرافعى) أو العقاد أو المازنى . وكلهم من كبار الكتاب الذين عاصروا أمير الشعراء وخاصموه . وقلت لك : إننى لم أتحدث عن (محمود سامى البارودى) الذى يقول معظم النقاد : إنه هو الذى مهد الطريق (لشوقى) ، لأننى أحسست بأن (شوقى) لم يأخذ عن البارودى شيئاً ، وكلاهما أخذ من نبع واحد ، ولكن أمير الشعراء أخذ عن (إسماعيل صبرى) فى مرحلة تمازج روحى وفنى مشترك .

ويكفى أن يقول العقاد :

«لم يخلع «شوقى» كسوة التشريفة قط فى قصيدة من قصائده ، ولابيت من أبياته ، فليست الصفات ولاالأخلاق ولاالآراء التى يثنى عليها هى التى تمثله فى حقيقة نفسه ودخيلة ضميره ، ولكنها هى الصفات والأخلاق والآراء التى يلبسها المرء يوم التشريفة ، ويتقلدها وهو قائم على منصب الوظيفة» .

يكفى أن يقول العقاد هذا الكلام لأبتعد عن محاسبته ، فهو يحاسب أمير الشعراء على حقيقة نفسه ، ودخيلة ضميره ، وسبحان من يعلم حقائق النفوس ودخائل الضمائر ، ولكن العقاد عاد بعد سنوات فبدل رأيه فى (شوقى) ، كما فعل صاحبه إبراهيم عبد القادر المازنى عندما هاجم (حافظ إبراهيم) ثم عاد فقال : إنه كان من نزق الشباب !

لم يضع (شوقى) على كتفيه خلعة التشريفة قط ، لاحسًّا ولامعنى ، وقد ذكرت لك أنه استأذن الخديو عباس حلمى فى إعفائه من ارتداء ملابس التشريفة

والملابس الرسمية فأذن له .

والناحية التى تحدث عنها العقاد وهى وطنية (شوقى) ، سبق أن أثارها الزعيم (محمد فريد) على صفحات جريدة اللواء ، فكتب مقالاً غمز فيه وطنية شاعر الأمير ، ورد عليه (شوقى) برسالة نشرت فى جريدة المنبر فى ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٨ وقال :

«إن وطنيتى لن تحل بها التهم ، ولن ترق إليها الشكوك والريب ، وهى التى أرجو أن أموت عليها وعلى الشهادة معها يومَ كلتاهما حق » .

ثم خاطب (محمد فريد) قائلاً :

«وطنيتى هتف بها البدو ، وتغنى بها الحضر ، وجاوزت ذلك إلى الأعجام من ترك وفرس ، فهى معلقة على جدران قصورهم ودورهم يقرؤها هنالك القارئون» !

وكان (محمد فريد) يهاجم (شوقى) فى شخص الخديو (عباس حلمى) الذى تنكر (لمصطفى كامل) وللحزب الوطنى . ثم سلط على (محمد فريد) الزعيم الوطنى زبانية الشيطان ، فسجنوه ، ثم اضطروه إلى الهجرة من مصر والإقامة فى برلين شريداً ضائعاً .

وعندما توفى (محمد فريد) غريبا مضطهداً عام ١٩٢٠ فى برلين ، ولم تسمح السلطة حتى بعودة نعشه إلى مصر إلابعد سنوات —كتب شوقى قصيدة يرثيه فيها ، قال فى مطلعها

كل حىٍّ على المنية غادى . تتوالى الركاب والموت حادى

ويقول شاعر الأمير وأمير الشعراء فى هذه القصيدة ، غير عابئ بالسلطة ، أو وظيفة التشريف :

مصر تبكى عليك فى كل خدر . وتصوغ الرثاء فى كل نادى

لو تأملتها لراعك منها . غرة البر فى سواد الحداد

مُنْتَهى مابه البلاد تُعزّى . رجلٌ مات فى سبيل البلاد

وهذا الشعر السياسى الصريح الذى قاله (شوقى) فى رجل سبق أن نال من وطنيته يحمل دلالات الأصالة المصرية عند أمير الشعراء .

وقف (شوقى مع مصطفى كامل) ، وكان قد عرفه فى باريس خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٩٣ ، وسبب ذلك أن الطلبة المصريين فى فرنسا أسسوا جمعية فى مدينة مونبلييه أطلقوا عليها اسم جمعية التقدم المصرى ، وأنشئ لها فرع فى باريس تحت رئاسة (أحمد أفندى شوقى) المصرى (أحد موظفى السكرتارية – إدارة التحريرات – الخديوية) ونزيل باريس . وخلال تلك الأيام أقامت الجمعية حفل تعارف بين أعضائها ، حضره (مصطفى أفندى كامل) محرر جريدة (المدرسة) الغراء الذى قال مخاطباً أعضاء الجمعية :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها عقود مدح فماأرضى لكم كلمى

وأنت ترى أن الوطنية هى التى جمعت بين (مصطفى كامل وأحمد شوقى) وهما فى مطالع الشباب ، وظلت الصداقة قائمة بينهما حتى آخر لحظة فى حياة الزعيم الشاب . ويصف (شوقى) ليلة وداعه لصديقه (مصطفى كامل) فى رسالته التى وجهها إلى (محمد فريد) حين اتهمه فى وطنيته ، فقال :

« عدت فقيد الوطن (مصطفى) ذات ليلة وهو محتضر ، لايأتى ولايذر ، وكان بحجرة نومه شقيقه ووارث عواطفه ومبادئه الأخ (على بك) وثلاثة من كرام الأصدقاء ، وكنت قد قمت للفقيد الكريم بخدمة أراها أنا لاتذكر ، واعتبرها هو أنها لاتصدر إلا عن أوفياء الرجال وشجعانهم ، فسر خاطره وانشرح صدره ، وامتد بنا السهر إلى مابعد منتصف الليل ، حتى إذا استأذنا من المريض الكريم قال لى بمسمع من الإخوان الأربعة : هكذا فليكن الرجل ، وهكذا فلتكن الوطنية »

وكان الزعيم (مصطفى كامل) صاحب جريدة اللواء يقول :

« (شوقى) همزة اللواء طالما تباهى به وافتخر ، واعتز به وانتصر ، وصال بوطنيته ما ظهر منها وما استتر ، وهو أصدق من نظم فيه ونثر ، فى وقت عز فيه الصادقون » .

ثم وقفت الواقعة التى يختلف عليها الكتاب والباحثون ، وهى قصائد (شوقى) عن (عرابى) بعد عودته من المنفى فى ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٠١ ، ولايجوز أن نتحدث عن أمير الشعراء وموقفه من (عرابى) بعيداً عن السياسة وظروفها وأحوالها عند عودة (عرابى) وزعماء الثورة من المنفى ، لأن بعض الناس يغضبون غضباً شديداً عندما يسمعون قول (شوقى) فى (عرابى) :

صغار فى الذهاب وفى الإياب
أهذا كل شأنك يا عرابى ؟

وقبل مهاجمة (شوقى لعرابى . هاجمه (مصطفى كامل) بل إن اللواء (محمد فهمى المهندس باشا) رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، وأحد زعماء الثورة العرابية هاجم (عرابى) هجوماً شنيعاً ، واتهمه بالجهل مما تسبب فى هزيمة معركة التل الكبير التى لم تدر رحاها . وكان (محمود فهمى المهندس) وهو الذى أقام استحكامات كفر الدوار ، فلم يستطع الغزاة المعتدون الخروج من الإسكندرية بعد احتلالها فى ١١ من يوليو ١٨٨٢ ، لعبور الدلتا إلى القاهرة . كما أنه قطع المياه العذبة عن الإسكندرية عزلها عزلاً عسكريًّا تاماً . ثم أراد سد قناة السويس عند بورسعيد ، حتى لايدخل منها الأسطول البريطانى ولكن (عرابى) تلكأ وصدق وعود ديلسبس بأن الأسطول لايستطيع دخول القناة لأنها دولية .

وعندما تجسم الخطر أصدر (عرابى) أوامره للواء (محمود فهمى المهندس باشا) بسد قناة السويس عند بورسعيد ، وأعد لهذه العملية أربعين ألف فلاح معهم الفئوس والمقاطف . وعندما بدأ اللواء (محمود فهمى المهندس) فى تنفيذ

خطته ، وخرج من التل الكبير ومعه ياوره الخاص متجهاً إلى الإسماعيلية ، فوصل إلى بلدة (المسخوطة) على الطريق التقى بها وأول كتيبة بريطانية نزلت على الشاطئ الغربي لقناة السويس . وكان الأسطول البريطاني قد وصلت بعض قطعه إلى الإسماعيلية ، ووقع اللواء (محمود فهمي المهندس) في أسر الأعداء ، وكان أول أسير . ثم بلغت الغفلة (بعرابي) أنه لم يبحث عن رئيس أركان حربه ، حتى وقعت كارثة التل الكبير .

وهذا لايقلل من قيمة (عرابي) كزعيم أيقظ الشعور الوطني في مصر ، لأن الانتصارات والهزائم لها ظروفها وملابساتها . وقد ظل الشعب المصري مؤمناً بحركة عرابي وهو في منفاه ، حتى ظهر (مصطفى كامل) ليقود النضال الوطني ضد الاحتلال .

وكان يمكن أن يستقبل الشعب المصري الزعيم (أحمد عرابي) العائد من المنفى استقبال الأبطال برغم وجود الاحتلال ، ولكن الذي حدث خلال تلك الفترة كان محيراً للألباب .

في سبتمبر سنة ١٩٠١ كان ولي عهد إنجلترا في جزيرة سيلان ، فالتمس منه (عرابي) العفو فعفا عنه . وقد غادر (عرابي) سيلان إلى مصر في ١٧ من سبتمبر ، ولكنه قبل قيامه أدلى إلى صحيفة (التيمس أوف سيلان) بتصريحات أثنى فيها على الاحتلال الإنجليزي .

وكان لهذه التصريحات وقع سيئ في جميع الأوساط خصوصاً أن حركة مصطفى كامل ضد الاحتلال كانت على ساق وقدم .

ثم وصل عرابي إلى السويس في ٢٩ من سبتمبر ١٩٠١ ، فأدلى إلى مراسل (التيمس) اللندنية بتصريح نشر في ١١ من أكتوبر وقال المراسل :

« صرح لي (عرابي باشا) مع السرور بإعجابه بحكم الإنجليز في مصر ، كما

أعجب به فى جزيرة سيلان ، ويظهر أن ماحصل له فى مدة الثمانى عشرة سنة التى أقامها فى المنفى بتلك الجزيرة جعله صديقاً حميماً لبريطانيا . »

أما ما حدث فى القاهرة فكان مصيبة أكبر : فبعد وصول (عرابى) فى مساء ٣٠ سبتمبر ١٩٠١ ، لم يكتف بتصريحاته السابقة التى أثارت سخط الرأى العام فى مصر ، بل إنه أدلى بحديث إلى جريدة المقطم وهى لسان حال الاحتلال البريطانى نشرته فى ٢ من أكتوبر ، وجاء فيه كما يقول المحرر الذى تحدث مع (عرابى) :

« ولما فرغ من شرح سفرته قلنا له :

– هل وجدتم مارأيتموه فى مصر فى هذين اليومين مختلفاً عما كان عليه حين مفارقتكم لها ؟

فقـال :

– إن عائلتنا كبيرة . . وقد قابلت أكابرهم الذين جاءوا السويس للتسليم علىّ ، فسألتهم عن الأحوال بالتفصيل والإجمال ، فوجدتهم متفقين فى الجواب .

سألتهم : أصحيح أن السخرة ألغيت ؟ فقالوا : نعم صحيح ، قلت : والكرباج ؟ قالوا : بطل من زمان طويل ، قلت : وكيف تحصل الأموال من الأهالى ؟ قالوا : بالحق والعدل ، وكل إنسان يعرف ماله وماعليه ، فسألتهم : وكيف الاستبداد فى الأحكام الآن ؟ أجابوا : لم يتبق للاستبداد أثر فى البلاد ؛ فكل شىء مقيد بقانون ونظام ؛ فشكرت الله حينئذ ، لأنه حقق مناى وأرانى قبل مماتى ما طالما كنت أتمناه لبلادى ، وقلت هذا هو الإصلاح ، ولكن لحكمة له جل جلاله قضى ألايتم على يدى بل على يد الذين نازلناهم فى ساحة القتال ، وكانوا لنا أعداء ، فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء . »

وبعد أن نشرت هذه التصريحات على لسان زعيم الثورة العرابية فى جريدة المقطم وهى لسان حال الاحتلال البريطانى قامت قيامة الدنيا فى مصر ، ويقول

المعاصرون : إن عرابى أصبح سجين بيته ، لايستطيع مواجهة الناس . ونفر منه أعز أصدقائه الذين استمروا على صداقته فى المنفى ، وكان المنشاوى باشا كبير كبراء طنطا من أقرب الناس لعرابى ، حتى إنه طلب منه وهو فى منفاه أن يرسل إليه بعض أشجار المانجو لمزارعه ، فبعث إليه (عرابى) بألف شجرة كانت بواكير زراعة هذه الفاكهة فى مصر.

ولكن المنشاوى باشا رفض مقابلة (عرابى) بعد عودته من المنفى خوفاً من سخط الناس عليه .

ليس هناك شك فى أن هذه الأحاديث والتصريحات الصحفية كانت مؤامرة استعمارية ، استغل فيها (أحمد عرابى) ، فلايعقل أن يصبح زعيم ثورة واحداً من أعوان الاستعمار ، بل إنه لم يكن هناك ثمن لذلك ، فقد ظلت ممتلكات (عرابى) مصادرة حتى أفرج عنها بعد قيام (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، وعاش الرجل سنواته الأخيرة عيشة الفقر والكفاف .

وماذا كان يستطيع أن يفعل لو نشرت مثل هذه التصريحات على لسانه.؟

لم يكن فى استطاعته تكذيبها ، وإذا كذبها فمن الذى ينشر له التكذيب ؟

لقد حوصر الرجل حصاراً قذراً وهو فى شيخوخته ومرضه وفقره . وهناك عرف دنىء عند من يصنعون مثل هذه الأحاديث الملفقة التى ينسبونها إلى الزعماء ، وهذا العرف هو أن يدفعوا ثمنها إذا كانت بخط صاحبها ، أوكان مستعداً للاعتراف بها على الملأ .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث مع الزعيم أحمد (عرابى) ، بل حدث شىء آخر خطير ، فنى يوم ٣ من أكتوبر ١٩٠١ وهو اليوم التالى لنشر تصريحات عرابى فى المقطم ، نشرت جريدة اللواء وهى جريدة (مصطفى كامل) افتتاحيتها تحت عنوان :

« مصر اليوم مرسح يمثل فيه آخر فصل من رواية : عاقبة خيانة عرابى وهو أسوأ فصول هذه الرواية المحزنة . »

وفى ٥ من أكتوبر نشرت اللواء مقالاً آخر تحت عنوان :

(نظرات إلى (عرابى))

وفى هذا المقال مجدت الجريدة (محمود سامى البارودى) ، وقالت : إنه لم يطالب بثروته ، ولارتبه ونياشينه ، مع أنه أعظم العرابيين ثراء وعظمة .

ولكن (شوقى) هاجم (عرابى) قبل أن يصل من منفاه إلى مصر : فقد نشرت جريدة اللواء فى صدرها وافتتاحيتها يوم ٢٩ من سبتمبر ١٩٠١ ، وهو يوم وصول عرابى إلى السويس قصيدة تحت عنوان ضخم (عرابى وماجنى) وكانت القصيدة بلاتوقيع ويقول فيها شوقى :

أهلاً وسهلاً بحاميها وفاديها ومرحباً وسلاماً ياعرابيها
وبالكرامة يامن راح يفضحها ومقدم الخير يامن جاء يخزيها
وعد لها حين لاتغنى مدافعها عن الزعيم ولاتجدى طوابيها

وهذه القصيدة السياسية ليست إلا تعليقاً على تصريحات عرابى لجريدة (التايمز أوف سيلان) التى قال فيها : إن الإنجليز أصبحوا أصدقاء مصر . وإلى هذا يشير شوقى فى قصيدته قائلا :

من العجائب صاروا من أحبتها فيما زعمت وكانوا من أعاديها
كأن ماكان من حَرْبٍ ومن حَرَب عتب المودة لايودى بصافيها

وبعد يومين أثنين وفى الأول من أكتوبر ١٩٠١ نشرت اللواء القصيدة الفظيعة التى يقول فيها شوقى :

صغار فى الذهاب وفى الإياب أهذا كل شأنك ياعرابى
عفا عنك الأباعد والأدانى فمن يعفو عن الوطن المصاب ؟

ولكن هذه القصيدة سبق نشرها فى (المجلة المصرية) فى عدد ١٥ من يونية ١٩٠١ ، ثم أعادت جريدة اللواء نشرها ، ويبدو أن (شوقى) نظمها بمجرد صدور العفو البريطانى عن عرابى .

وهكذا اتخذ (شوقى) موقف العداء من (عرابى) قبل وصوله من منفاه إلى أرض الوطن . مما ينم عن وجود خطة محكمة سابقة لاستقبال (عرابى) عند عودته ، والتنديد به .

أما القصيدة الثالثة فإنها معلقة طويلة نشرت فى جريدة اللواء يوم ١٢ من يناير سنة ١٩٠٢ ، تحت عنوان (صوت العظام أوعرابى أمام قتلى التل الكبير) ، ويقول شوقى فى بدايتها :

عرابى كيف أوفيك الملاما جمعت على ملامتك الأناما

فقف بالتل واستمع العظاما فإن لها كما لهمو كلاما

ويتحدث (شوقى) على طريقته حديث التاريخ ، فيروى انتصارات جيوش محمد على وابنه إبراهيم . ويسخر من عرابى قائلا :

وبالأذكار لم نُحْىِ الليالى ولا بتنا على ضيم نياما

وليس هناك شك فى أن الخديو (عباس حلمى) أعد خطة لمهاجمة (عرابى) ، مع (مصطفى كامل) ، واستخدم (شوقى) لتنفيذ خطته باعتباره شاعر الأمير ، ونجحت الخطة فى تشويه سمعة (عرابى) . وقد ساعد على نجاحها المؤامرة البريطانية المدبرة ضد الزعيم المصرى حيث نشرت على لسانه التصريحات التى ذكرتها لك ، والتى أشك فى صحتها .

كانت صداقة (شوقى لمصطفى كامل) صداقة حميمة ، وقد وقف إلى جانبه فى حادثة دنشواى ، وهى أعظم مواقف الزعيم الشاب الذى استطاع الإطاحة باللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ، والملك غير المتوج .

ألف (شوقى) دوراً غنائياً عن دنشواى ، كان يغنى فى السهرات الخاصة ، وقد غناه أشهر مطربى عصره عبد الحى حلمى ، ويقول شوقى فى هذا الدور :

يـــاحمامـــة دنشـــواى
نُوحى للسيرجراى [١]
تحت الـــــظـــلام
كى لا يــــنـــام
الشــــنق حـــــامى
والضـــرب دايـــــر
فـــين المحـــــامى
مــــافـــيش كـــلام

ومن أعظم الشوقيات ، تلك الشوقية التى يتحدث فيها عن دنشواى ، فيقول :

يادنشواى على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام
نيرون لوأدركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الأحكام؟
نوحى حمائم دنشواى وروعى شعباً بوادى النيل ليس ينام

كما كانت قصيدته الشهيرة فى وداع اللود كرومر جزار دنشواى :

أيامكم أم عهد إسماعيلا أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره لاسائلاً أبداً ولامسئولا؟

من أعنف القصائد السياسية التى قيلت فى العصر الماضى .

ولشوقى قصيدة أخرى فى وداع كرومر جعل عنوانها (وداع الشبيبة المصرية

---

(١) السير جراى كان وزير خارجية بريطانيا عندما وقعت حادثة دنشواى .

للورد كرومر) قال فيها :

ياراحلاً عنا وذكرك خالدٌ أبداً ليحيى بيننا الآلاما
سر بالسلامة حاملاً زفراتنا واذكر مقامك بيننا الأعواما
واذكر حكاية دنشواى فإنها كم خلَّفَتْ بين الربوع يتامى

والحقيقة أن (شوقى) كتب قصائد ومقطوعات متعددة عن دنشواى ، ولكنها لم تنشر فى الشوقيات ، لأنه كان ينشرها فى الصحف والمجلات تحت أسماء مستعارة .

إن الجانب الخفى من حياة أمير الشعراء لم يبحث حتى الآن ، وخاصة فى شعره السياسى ، فقد كان مركزه كشاعر للأمير يحول بينه وبين نشر اسمه أحياناً . ولكن صداقته (لمصطفى كامل) كانت مستمرة لاتنقطع . ثم حدث خصام بينه وبين (محمد فريد) خليفة (مصطفى كامل) بسبب تغير سياسة القصر تجاه الحزب الوطنى .

أما علاقة (شوقى بسعد زغلول) فقد بدأت منذ دنشواى ، وكان يعادى آل زغلول جميعاً ، وخصوصا (فتحى باشا زغلول) الذى كان عضواً فى المحكمة المخصوصة التى أصدرت أحكامها على شهداء دنشواى ، ثم فصل الإنجليز (إسماعيل صبرى باشا) من وكالة وزارة الحقانية (العدل) وعينوا (أحمد فتحى زغلول) ، ومنحوه رتبة الباشوية ، وفى السنة نفسها عين (سعد زغلول) وزيراً للمعارف .

ويقول شوقى فى تهنئة وكيل وزارة الحقانية (فتحى زغلول باشا) :

إذا ما جمعتم أمركم وهممتو
بتقديم شىء للوكيل ثمين

خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين
ولاتعرضوا شعرى عليه فحسبه
من الشعر حكمٌ خطّه بيمين
ولا تَقْرءوه فى (شبرد) بل اقرءوا
على ملإٍ من دنشواى حزين

ولكن (شوقى) بعد ذلك أصبح صديقاً (لسعد زغلول) ومن كبار المؤيدين لثورة ١٩١٩ وقد قال فى سعد :

ياشباب اقتدوا بشيخ المعالى فالمعالى تشبّهٌ وتحدى
قد تصدى لنائبات حقوق غير سهل لمثلهن التصدى

وقد نشرت الأهرام والسياسة فى صباح ١٤ من نوفبر سنة ١٩٢٦ قصيدة تحت عنوان :

(آية شوقى فى ذكرى الجهاد الوطنى)

وكان يوم ١٣ من نوفبر ١٩١٨ هو اليوم الذى ذهب فيه (سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى) إلى دار المعتمد البريطانى يطالبون باستقلال مصر، وأصبح هذا اليوم يسمى (عيد الجهاد الوطنى)، ويقول شوقى فى مطلع القصيدة :

خطونا فى الجهاد خطى فساحا
وهادنا ولم نلق السلاحا

ومن أبدع ماقاله عن ثورة ١٩١٩ :

كأن (بلالَ) نودى : قم فأذن فرج شعاب مكة والبطاحا
كأن الناس فى دين جديد على جنباته استبقوا الصلاحا

وعندما عرض مشروع ملنر على مصر عام ١٩٢٣ قامت معارضة شديدة ضده لأنه لايمنح الاستقلال الكامل للبلاد ، وقد كتب شوقى قصيدة ليس فيها من السياسة شيء ، بل كلها غزل . ويقول تلميحاً إلى المشروع :

ينال باللين الفتى بعض ما يعجز بالشدة عن غصبه
فإن أنستم فليكن أنسكم فى الصبر للدهر ، وفى عتبه

كما كتب قصيدة عن تصريح (٢٨ فبراير) الذى أعلن استقلال مصر ، وإلغاء الحماية البريطانية .

ولكن صلة (شوقى بسعد زغلول) توثقت بعد خصام ، وزار (سعد) أمير الشعراء فى بيته كرمة ابن هانئ ، وظل هذا الود قائماً حتى لقى (سعد) وجه ربه ، ورثاه شوقى بالقصيدة التى لم يكتب مثلها فى العربية :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانثنى الشرق عليها فبكاها

١٥ – الدكتور محجوب ثابت

أليس من الظلم أن نتحدث عن الشخصيات فى حياة شوقى ، ونغفل اسم الدكتور محجوب ثابت ؟

هو مسك الختام فى هذه الأحاديث .

يقول الأستاذ فكرى أباظة صديق محجوب ثابت :

كان المرحوم « محجوب ثابت » من عشاق حرف « القاف » المقلقلة فكان ينادى صديقه الحميم « النقراشى باشا » باسم « نقرش » ، وكانت أحب المشروبات إليه القرفة و « القرقديه » يقصد الكركديه السودانى ، وكانت أحب الأطباق إليه طبق القلقاس وطبق القرنبيط – وجريا على هذه القاف – رشح نفسه لمجلس النواب فى دائرة « بولاق » !

كان أنس المجالس الخاصة ، وكان يحرص كل أصدقائه على مداعبته ، ومن

ين هؤلاء الأصدقاء أمير الشعراء أحمد شوقى ، وقد كان يملك عربة حنطور بجواد
إحد هزيل نحيل أقله لحم ، وأكثره عظم فنظم « شوقى بك » قصيدة عصماء
.اعب فيها (الدكتور محجوب) وسمى جواده النحيل الهزيل باسم (مكسى) نسبه
لى الجواد المشهور الذى فاز بجوائز بلغت نصف مليون جنيه فى سباقات الخيل
لعالمية واسمه « مكسوينى »[1] الذى أضرب عن الطعام ، ثم أصابه الهزال فقال فى
حصان محجوب بعض مااخترناه من أبياتها :

أدنيا الخيل يامكسى ... كدنيا الناس غدارة
أحقا أن محجوباً ... سلا عنك بفخّارة
وباع الأبلق الحر ... بأوفر لاند نعّارة
عسى الله الذى ساق ... إلى يوسف سيارة
يهيئ لك هوّاراً ... كريماً وابن هوارة

وكان محجوب ثابت وأحمد شوقى ، يجتمعان فى مجلس سعد زغلول الذى كان
شديد الإعجاب بشوقى كما ذكرت لك ، حتى إنه جعل حفلة تنصيبه أميراً للشعراء
تحت رياسته الشرفية باعتباره زعيم الأمة ، وطرد (عباس محمود العقاد) من بيت
الأمة بسبب تهجمه على شوقى ، عند الاحتفال به ، ونشر مقالاً فى جريدة البلاغ
أثار ثائرة الزعيم سعد زغلول .

وعندما قام سعد زغلول برحلة فى النيل على ظهر الباخرة (محاسن) التى
اتجهت نحو بعض بلاد محافظة الجيزة كان من ضيوف سعد فى هذه الرحلة التى
بدأت يوم الأربعاء ٤ من مايو ١٩٢٦ أحمد شوقى بك أمير الشعراء ، وكان الدكتور
محجوب ثابت من ضيوف الرحلة بالطبع ، لأنه كان لايفارق (سعد زغلول) فى

---

(١) ذكر شارح الشوقيات أن (مكسوينى) بطل رياضى ، وهو خطأ ، والصواب ما يقوله
الأستاذ فكرى أباظة .

غدواته وروحاته . وكان يسافر معه إلى (مسجد وصيف) عندما يذهب سعد إلى هذه القرية للاستجمام .

وخلال هذه الرحلة النيلية كان محمود فهمي النقراشي يستثير (محجوب ثابت) ضد شوقي على سبيل المداعبة ، فأذاع أن الدكتور (محجوب) يحسد (شوقي) أمير الشعراء على حفلات التكريم التي تقام له . ثم دارت مناقشات اشترك فيها سعد زغلول حول المقارنة بين شوقي وحافظ إبراهيم .

كانت المقارنة بين شوقي وحافظ تشغل الرأى العام في مصر ، وفى كل أقطار العرب ، ومازالت تشغلنا وستظل تشغل من يجيء بعدنا . وكان زكي مبارك على حق حين قال :

« كانت حياة حافظ وشوقي طاغية عاتية كتبت الخمول على مئات الشعراء » . وقد ذهبت جهود شعراء العصر الحاضر أدراج الرياح ولم يعلم بوجودهم إلا الخواص لأن (حافظ وشوقي) كانا استبدا بالمكان ولم يتركا مجالاً لشباب أو كهول » .

حتى طه حسين عندما أراد أن يتحدث عن الأدب المصرى الحديث لم يجد حديثاً غير (حافظ وشوقي) .

في شعر شوقي باب فريد وحيد هو باب المحجوبيات ، وهي المداعبات التي كان يكتبها أمير الشعراء لصديقه في بعض المناسبات .

كان محجوب ثابت رئيساً لنقابة العمال في بولاق ، ورشح نفسه للانتخابات في هذه الدائرة ، ولكنه سقط . فكتب شوقي تعزية للدكتور على سقوطه في الانتخابات قال فيها :

أعزيك أبا مكسى وإن لم تبتئس نفسى
لقد صرت لنا اليوم كما كنت لنا أمس

فلا عقلك فى الحكم ولاروحك فى الكرسى
ولا تمش على بولاق من عُرس إلى عُرس
وقد دقت لك العود ومدّت بُسط الفرس
إذا مابلغ المجلس أمثالك من النُطس
فمن نطلب للطب ومن نندب للدرس؟
ومن يسمر فى النادى ويحيى مجلس الأنس؟
ومن للنفخة الكبرى من الرجل إلى الرأس؟

وبعد سقوط محجوب ثابت فى الانتخابات فى يونيو ١٩٢٤ ، وهو مرشح الوفد الذى شاع عنه فى مصر أنه لو رشح حجراً لانتخبه الناس ظل الدكتور محجوب يحلم بالوصول إلى منصب وزير الصحة . وأتخذ محمود فهمى النقراشى من هذا الحلم المحجوبى مادة مستمرة للدعابة التى اشترك فيها سعد زغلول ، وكان محجوب ثابت يشترط لدخوله الوزارة أن يسمح له بارتياد القهاوى والمحال العامة التى اعتاد الجلوس فيها ، وأهمها قهوة الشيشة وبار اللواء . وعندما لمح له سعد زغلول بأن تعيينه وزيراً للصحة سيوصله إلى رتبة الباشوية اعتذر عنها لأنه لايملك ثمانين جنيهاً ثمن بدلة التشريفة !

كان محجوب ثابت من الشخصيات النادرة فى عصره ، ولم يصل إلى شىء مما يشتهيه ، فلم يتزوج مع أن أصدقاءه خطبوا له من العرائس الوهميات عدداً لايحصى ، ولم يصل إلى منصب من المناصب مع صلاته القوية بأصحاب السلطة والجاه وعلى رأسهم زعيم الأمة سعد زغلول .

وقبل أن أحدثك عن أحلام الدكتور محجوب التى صورها شوقى فى قصيدة بديعة من قصائده لابد من الحديث عن (مكسوينى) حصان محجوب ثابت الذى أشيع فى مصر أنه انتحر بعد سقوط صاحبه فى الانتخابات .

كتب شوقى ثلاث قصائد فى مكسوينى الذى كان يجر عربة الدكتور محجوب فى أثناء ثورة ١٩١٩ ، واشتهر أمره فى الكفاح الوطنى . وقد عرف شوقى خبر انتحار مكسوينى وهو فى باريس (أغسطس ١٩٢٤) فأرسل إلى الدكتور محجوب هذه المرثية :

يامكسى دنياك عارة والموت كأس مدارة
والدهر يوماً ويوماً والحال طورا وتارة
والعيش زهرُ ربيع قصير عُمر النضارة
إذا بلغن التراقى فكل ربح خسارة
يامكسى قل لى: أحق قد وسدوك الحجارة
وغيبوك طويلا أشمّ مثل المنارة
عن أبيض الهند سلوا العريش والجرارة؟
ألم تكن وطنيا بكل معنى العبارة؟
فكم شهدت قتالاً وكم توردت غارة!
وكم لبست صليباً على الجبين وشارة!
وكم نقلت جريحاً فمات بالاستشارة!

وهى قصيدة طويلة لم تنشر فى الشوقيات .

أما القصيدة الشهيرة فى رثاء مكسى ، وهى التى ذكر بعض أبياتها الأستاذ فكرى أباظة ، فمطلعها :

لكم فى الخط سياره حديث الجار والجارة

لأن الدكتور محجوب اشترى سيارة ماركة « أوفر لاند » بعد انتحار حصانه مكسوينى ، وقد ظلت هذه السيارة معه إلى نهاية حياته ، وكان يركبها عندما اشتغل كبيراً لأطباء جامعة القاهرة .

وخلال ثورة ١٩١٩ كتب شوقى قصيدة فى تحية (مكسوينى) حصان الدكتور محجوب ، قال فيها :

تفديك يامكسى الجياد الصلادم
وتفدى الأساة النطس من أنت خادم
كأنك إن حاربت فوقك عنتر
وتحت ابن سينا أنت حين تسالم
فـإنك شـمس والجيـادُ كـواكب
وانك ديـنـار وهنّ دراهم

وكان شوقى قد لقب الدكتور (محجوب) بلقب (ابن سينا) الشيخ الرئيس وكبير الأطباء . وهو يخاطب مكسوينى بعد انتحاره ، وركوب الدكتور للسيارة ، قائلا :

لما جفاك ابن سينا وهام بالسياره
تفر منه وتجرى كالنحلة الدواره
فلا إلى البوق تصغى ولا إلى الزماره
وقد تهتك فيها حتى أضاع وقاره

ويشير أمير الشعراء إلى أن الدكتور (محجوب) فقد وقاره بعد أن ركب السيارة وهجر عربة الحنطور .

أما حكاية انتحار مكسوينى فإن (شوقى) يشير إليها قائلاً :

أرسلت رأسك يهوى من ربوة لـقـراره

وقد ذكر الرواة أن (مكسوينى) كانت له عربخانة فى قلعة الكبش بالقرب من مسجد السيدة زينب ، وهى ربوة مرتفعة ، وذات يوم قفز الحصان من فوق هذه الربوة ، وسقط جثة هامدة فى شارع مراسينا .

ومن لطائف مداعبات شوقى لصديقه محجوب ثابت مقطوعة قالها أمير الشعراء عندما عرف أن الدكتور (محجوب) – أيام ثورة ١٩١٩ – كان يكتنز ألفى جنيه لايمسها ، ولايقترب منها لمعاونته على مصائب الزمان ، فقال له شوقى :

قل لابن سينا لاطبيب اليوم إلا الدرهم
هو قبل بقراط وقبلك للجراحة مرهم
والناس مذ كانوا عليه دائرون وحوّم
وبسحره تعلو الأسافل فى العيون وتعظم
ياهل ترى الألفان وقف لايمس محرم !

وفى عام ١٩٢٦ عندما كان الدكتور محجوب ثابت يحلم بتولى وزارة الصحة ، ويرشح نفسه لها ، ويجادل (سعد زغلول) فى ذلك الأمر كان شوقى يبتسم ساخراً .

لقد انتخب الدكتور محجوب ثابت عضواً فى مجلس النواب ، وساعده العمال على النجاح فى الانتخابات بعد سقوطه الشنيع فى بولاق ، وأصبح ترشيحه للوزارة أمراً لايحتاج إلى التعقيد . ومن أظرف المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع ، هذه المناقشة التى جرت على ظهر الباخرة محاسن خلال رحلة سعد زغلول النيلية إلى بعض بلاد محافظة الجيزة ، وكان شوقى حاضراً فى أثناء المناقشة ، ومستمعاً لها .

وكان الدكتور يمنى نفسه دائما بمنصب وزير الصحة ، وكان المنصب خالياً ، وكثيراً ماأوحى أصدقاء الدكتور إليه أنه أجدر الوفديين بهذا المنصب ، فكانت الدعابة تدور دائماً بينه وبينهم حول هذا الموضوع الحبيب إلى قلبه :

النقراشى : ألا حظ أن الكتور (محجوب) مهموم وآسف على ضياع مركزه فى الوزارة .

الدكتور محجوب : قد قطعنا الأمل يانقراشى ، ويظهر أنكم لاتصدقوننى !

الرئيس سعد : (متجاهلاً) فى أى شىء تتكلمون ؟ أشركرنى فى حديثكم

فلا علم لى بشىء !

النقراشى : المسألة يا « دولة الرئيس » أن أهل السياسة العليا كانوا يتفاوضون والدكتور محجوب أيام الأزمة الوزارية ليقبل منصب وزير الحربية .

محجوب : يقيناً يامولاى الرئيس لم يتفق لى علم شىء ؛ لأنى كنت أيام الأزمة فى لجنة التوفيق فى الإسكندرية .

«والذين أنسوا بصداقة الدكتور محجوب يذكرون أن كلمة « يقينا » كانت من لوازمه فى كلامه ، وكذلك كلمة « حقيقة » وغيرها من الكلمات ذوات القاف . »

النقراشى : نعم ، ولكنك كنت على صلة تامة بأعوانك فى مصر ، ووصلك منهم تلغراف يقول : « إن الأخبار سارة واحضر بأول قطار » !

محجوب : (رافعا يديه إلى الرئيس) والله ياباشا كانت مؤامرة طبخها النقراشى وفخرى عبد النور .

فخرى بك : لاتقل مؤامرة ، إنى حدثتك بالحقيقة ولاعلم لى بشأن النقراشى معك .

الرئيس : ماذا حدثته به يافخرى (بك) ؟

فخرى بك : فى أيام الأزمة ، قلت له : إن بعض أصحابك الذين يعرفون قدرك رشحوك لوزارة الصحة ، وعلمت أن الدكتور (شاهين) باشا (وكيل الصحة يومئذ) قال : « لاأقبل (حافظ عفيفى) وزيراً ، لأن هواى ليس مع الدستوريين ، وإن كان لابد من الدكتور حسن كامل بك فإنى أقبل العمل

معه لأنه أستاذى وأكبر منى سناً . أما الدكتور محجوب فإنى أقبله وزيراً للصحة بكل سرور ، لأنى أحبه وأثق بكفاءته ومقدرته الفنية . »

محجوب : (يمسح شفتيه بلسانه) يقيناً يا « باشا » قلت فى نفسى لابأس من قبول وزارة الصحة ، أما الحربية فماذا أعمل فيها ؟

الرئيس : بالله يادكتور محجوب ، حدثنا عن ذات صدرك فى ذلك الحين ، وماذا كانت آمالك ؟

(أحرج الدكتور محجوب وتطلع إليه الجميع منتظرون) !

محجوب : والله يامولاى ترددت كثيراً ، لأنى قلت فى نفسى : الوزارة ستحرمنى الجلوس على قهوة الشيشة كعادتى .

النقراشى : ومن مناكفة بائعى الجرائد أيضاً !

محجوب : حقيقة يانقراش ، فإنى أنتظرهم كل ليلة لأشترى منهم الجرائد ، ثلاثا أو أربعاً بقرش .

الرئيس : هل هذا هو المانع فقط ؟

محجوب : ويامولاى الرئيس ، تضطرنى الوزارة إلى السكنى فى بيت أنيق أومايسمونه (فيلا) ، وأدفع أجرة عشرين جنيهاً (شهريًّا) على الأقل .

الرئيس : ثم ماذا ؟

محجوب : آه ! والملابس الرسمية ، فسأدعى فى كل ليلة إلى حفلة ساهرة ، وأختنق نفسى (بالقلع) واللبس ، وأنا رجل تعودت العيشة السهلة .

الرئيس : (مبتسما) ليس فى هذه الأسباب مايمنع ، لأن الذى

يعرض عليك الوزارة يعرف طبعاً أنك نائب العمال ، وأنك مضطر لأن تكون دائما على صلات بهم ، ونحن فى عهد ديموقراطى ، فماذا يمنع من جلوسك وأنت وزير على (قهوة الشيشة) أو (صولت) ؟

النقراشى : مع أنه اشترط تسمية وزارته باسم وزارة الصحة والعمال .

محجوب : يقيناً لأنى منهم وأنتخبت على أكتافهم .

الرئيس : ثم التكاليف الرسمية ليست سبباً هاماً .

محجوب : يقيناً ياباشا ! لكننى ترددت كثيراً فيما بينى وبين نفسى .

الرئيس : تعنى لو أن الوزارة عرضت عليك على ألاتجلس فى قهوة الشيشة أفكنت ترفضها وتؤثر عليها الجلوس فى القهوة ؟

محجوب : نعم يخيل إلى ذلك ، لأن الوزارة ستعتقلنى طول النهار بين أربعة حوائط ثم أقضى الليل فى بيتى كذلك ، ليس فى هذه العيشة مايرفه أويسلى ! نعم عندى «شيشتى» فى البيت ، ولكنها فى القهوة لها كل معانيها .

النقراشى : ولاتنس مناكفة بائعى الجرائد .

محجوب : آه منك يانقرش !

الرئيس : ومتى تبتدئ هذه المناكفة يادكتور ؟

محجوب : (يبطئ فى الجواب ويحمر وجهه) حوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، ولكن هذه يانقرش ليست شهوة هامة ، إذ يمكننى وأنا وزير أن أزيدهم قرشاً أوقرشين .

الرئيس : أظن أنه لايحق لك أن تمتنع عن قبول الوزارة لمثل هذه الأسباب ، وأنا أنصح لك بقبولها حين تعرض عليك .

(فضحك الجميع ، ولكن سرعان ماتكاتموا الضحك حتى لايظن الدكتور أن الأمر هزل . .)

وعلى ظهر الباخرة لاحظ سعد زغلول ذات مرة أن الدكتور (محجوب) غير حاضر ، فأرسل يستدعيه ، ولما جاء فاجأه عبد الله بك أباظة قائلاً :

– دايما تتأخر يادكتور . . فماذا تفعل لو أصبحت وزيراً ؟

فقال الدكتور :

– لاياسيدى ! الوزارة ترغمنى على حفظ المواعيد ، ومادام الرئيس يضع ثقته فىّ ويرشحنى لها فلا أقل من أحقق حسن ظنه ، حتى لا يقول أحد : إنه رشح خائباً !

فقال له سعد زغلول :

– مازلت متعلقاً بالوزارة يا دكتور ؟

وقال النقراشى :

– ليكونَ باشا .

فقال محجوب :

– لا يانقرش . . لا أريد الباشوية . . وإلا فمن أين أشترى بدلتها ، وثمنها يبلغ الثمانين جنيهاً .

استخلص شوقى هذا الحوار كله . وكتبه فى قصيدة من بدائعه (لم تنشر فى الشوقيات وهى من الشوقيات المجهولة) وجعل عنوانها :

(بين يدى الرئيس)

وقال فيها :

ببيت الأمة اعتقل المطيّا ... وفى دهليزه أطرق مليّا

وألق سبال ذقنك فيه وانشق ... تراب الساحة الكبرى ذكيّا

وأد إلى (الجزيرى) التحايا وسله ينل لك الإذن العليا
وحملق فيه حين يهز عطفاً تجد تحت الغلالة سمهريا
وقل لم أدرأنت أم (الجديلى) ألذ تقمصاً وأحب زيّا

يشير شوقى إلى لحية الدكتور محجوب ، فقد كان صاحب لحية كثة شهيرة ، أما الجزيرى والجديلى فهما من سكرتارية سعد زغلول ، وكلاهما أزهريان كانا يرتديان الجبة والقفطان ، ثم ارتديا الثياب الإفرنجية بعد ذلك .

ويوجه محجوب ثابت حديثه إلى سعد زغلول قائلاً بشعر شوقى :

برئت إليك من خلطى وخبطى ومما لفق الواشى عليّا
وجئت إليك أشكو من هموم مؤرقة فهل تصغى إليّا؟

وهموم محجوب ثابت المضحكة هى :

لعلك قد علمت وفاة مكسى وكيف مضى وخلف لى عليّا[1]
و(أوفر لاند) أدركها كساح فليت كساحها فى ركبتيا
وخطب الصيدلية كان أدهى وأنكر موقعاً فى مسمعيّا
رحلت وفى العيادة كل شىء وعدت فما وجدت هناك شيّا
ولى مرضى من العمال كثْر إذا الأسطى مضى بعث الصبيا
أحررها تذاكر ليس تحصى وما من ذاك شىء فى يديّا!

واشتهرت حكايات الدكتور محجوب ثابت فى مصر، وتناقلتها الصحف والمجلات ، وأصبحت مما يتلذذ به الناس فى مجالسهم الخاصة . فقد كان يطلب وظيفة رئيسية ، أو أن يعين مدير مستشفى ، حتى شاع وذاع أنه سيعين مديراً لمستشفى المجاذيب ، وكان سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول ينشر هذه النوادر على صفحات مجلته .

---

(١) مكسى هو حصان الدكتور ، وعلى هو سايس الحصان .

وأعجب شوقى بما يدور من فكاهات ، فكتب إحدى بدائعه التى نشرتها مجلة الكشكول فى عدد الجمعة ٢٤ من سبتمبر ١٩٢٦ ، ويقول فيها :

يميناً بالطلاق وبالعتاق من الدنيا المعلقمة المذاق
وكل فقارة من ظهر مكسى بصحراء الإمام وعظم ساق
وتربته وكل الخير فيها ونسبته الشريفة للبراق
وبالخطب الطوال وماحوته وإن لم يبق فى الأذهان باق
وكسرى الشعران أنشدت شعراً ونطقى القاف واسعة النطاق
بوقت ضاعت الأخلاق فيه وأصبحت السلامة فى النفاق
أيشتمنى سليمان بن فوزى و(بيبى) فى يدى ومعى (تباق)[1]

ثم يقول شوقى على لسان محجوب ثابت الغاضب على سليمان فوزى :

أنا الطيار رجْلٌ فى دمشق إذا اشتدت ورجل فى العراق
ألا (طُزٌّ) على العيهور (طُزٌّ) وإن أبدى مجاملة الرفاق
بقارعة الطريق ينال منى ويوسعنى عناقاً فى الزقاق
ألم تر أننى أعرضت عنه وصار لغير طلعته اشتياقى
فسبحان المفرق حظ قوم قـنـاطيراً وأقوام أواقى
وقوم يرتقون إلى المعالى وقوم مالهم فيها مراقى
أمور يضحك (السعداء) منها ويبكى البلشفى والاشتراقى[2]

كان محجوب ثابت أنس المجالس ، وزينة المجتمعات فى عصر شوقى ، كما كانت مقطوعات شوقى التى قالها فيه ، ورويت لها بعضها – من أمتع شعر المداعبات .

هذا هو مسك الختام لهذه الصفحات التى أرجو أن تكون قد أمتعتك .

---

(١) يشير إلى البايب التى كان يدخنها الدكتور وإلى الطباق .

(٢) يعنى الاشتراكى .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣٧٣٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٨٠ - ١

١/٧٩/٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

